الخصائص البلاغية في القرآن الكريم

من قوله تعالى

[وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا]

الآية ٩٩ من سورة الكهف

إلى قوله تعالى

[قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا]

الآية: ٢١ من سورة مريم

جمع ودراسة

دكتور

كرم معروف محمود معروف

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

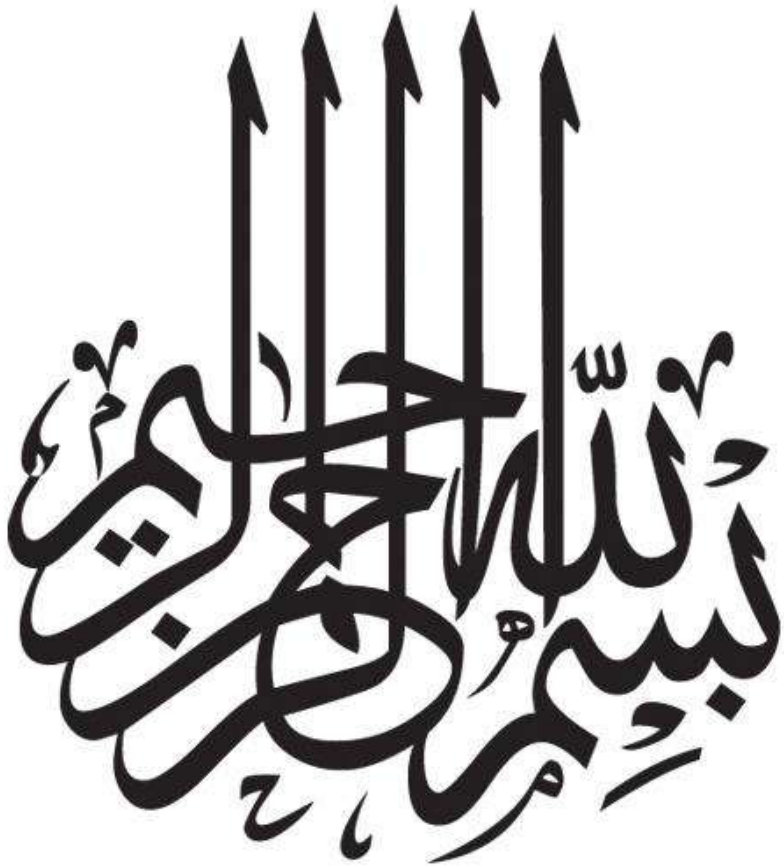

تقديم

الحمد لله الكريم المنان، ذي الطول والإحسان، نزَّل القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، حامل لواء الفصاحة وزمام البيان، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وأتباعه الأبرار، ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم إلى يوم القرار .

وبعد :

فإنَّ لعلوم اللغة دوراً عظيماً في تفسير كتاب الله ﷻ، والتبحر فيها يكشف عن مكنون ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وأسلوبه- قدر الطاقة البشرية- ولذلك كان من ألزم شروط من يتصدى لتفسير كتاب الله ﷻ أن يكون ملماً إلماماً واسعاً بعلوم العربية بقدر ما يتيح له التعرض لهذا العلم بحثاً وتفسيراً.

أمَّا من يتجرأ على تفسير كتاب الله ﷻ دون علم بالعربية لا شك أنه سيخطئ ويحيد عن جادة الصواب، وسيؤدى به عدم إلمامه بقواعد العربية إلى الخطأ في التأويل، مما سيترتب عليه تحريف الكلم عن مواضعه ، وهذا لا يتأتى مع قدر وجلال القرآن الكريم تنزيلاً ومنزلاً .

وإنَّ موضع علوم البلاغة من علوم العربية " موضع الرأس من الإنسان، أو اليتيمة من قلائد العقيان، فهي مستودع سرها، ومظهر جلالها، فلا فضيلة لكلام على كلام، إلا بما يحويه من لطائفها، ويودع فيه من مزاياها وخصائصها، ولا تبريز لمتكلم على آخر، إلا بما يحوكه[1] من وشيها[1]، ويتلفظه من درها، ويجنيه من يانع ثمرها.

---

(١) حاكَ الثوبَ يحُوكه حَوْكاً وحِياكاً وحِياكة: نَسَجَهُ ، وَالشَّاعِرُ يَحُوك الشِّعْرَ حَوْكاً: يَنْسِجُهُ وَيُلَائِمُ بَيْنَ أَجزائه. لسان العرب لابن منظور ١٠/

لأن بها نعرف وجه إعجاز القرآن، وندرك ما فيه من خصائص البيان، ونفهم براعة أسلوبه، وانسجام تأليفه، وسهولة نظمه وسلامته، وعذوبته وجزالته " . (٢)

ولعظم علم البلاغة وأهميته أكد العلماء على ضرورة تحصيل المفسر لكتاب الله ﷻ لهذا العلم بفروعه الثلاثة " المعاني والبيان والبديع"، وعدُّوه من العلوم التي يجب على المفسر أن يكون ملماً بها حتى يتسنى له أن يفسر الآيات القرآنية تفسيراً صحيحاً وسليماً . (٣)

ولهذا عقد الإمام الزركشي في برهانه مبحثاً تحت عنوان " معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح "، ونَصَّ فيه على أنه : " يؤخذ ذلك من علمي البيان والبديع ".

ثم تحدث عن أهمية هذا العلم بالنسبة للمفسر فقال: وهذا العلم أعظم أركان المفسر، فإنه لابد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة

---

٤١٨ مادة (ح و ك) الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

(١) وَشى فُلَان الثَّوْب وَشْياً وشِيةً: حَسَّنَه. ووَشَّاه: نَمْنَمَه ونَقَشَه وحَسَّنه، ووَشى الْكَلَام أَلفه ولونه وزينه فَهُوَ واش . لسان العرب ٣٩٢/١٥ مادة (و ش ي) ، المعجم الوسيط ١٠٣٥/٢ مجمع اللغة العربية بالقاهرة الناشر: دار الدعوة

(٢) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي ٤،٣/١

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢١٤/٤ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م ، مناهل العرفان للزُّرْقاني ٥٣/٢ الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الثالثة

والمجاز، وتأليف النظم، وأن يواخي[1]، بين الموارد، ويعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر وغير ذلك....

إلى أن قال: واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المُطْلِعِ على عجائب كلام الله، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة، ولو لم يُحَبِّبِ الفصاحةَ إلا قول الله تعالى [ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤] [2] لكفى ". [3]

كما أشاد بدور علوم البلاغة في التفسير كثير من المفسرين، ومنهم الإمامان الجليلان الزمخشري ، وأبو حيان، وغيرهما .

يقول الزمخشري: "إن الذي يريد أن يسلك هذا الطريق- تفسير القرآن- ينبغي أن يكون قد أطال النظر في نظم القرآن، ويجب عليه أن يكون قد تخصص في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان، وأن يتفوق في علم الإعراب، كما يجب أن يكون ذا دراية بأساليب النظم والنثر.....، ليعلم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف " [4].

---

(١) الوَخْي: الطريقُ المُعْتَمد والتَّوَخِّي بِمَعْنَى التَّحَري، ويُقَالُ: تَوَخَّيْتُ الشَّيْءَ أَتَوَخَّاه تَوخِّياً إذا قَصَدْتَ إليه وتَعَمَّدْت فِعلَه وتحَرَّيْت فِيهِ. لسان العرب ٣٨٣/١٥ مادة (و خ ي)

(٢) سورة الرحمن ٥٥ الآيات ١-٤

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣١١/١ المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

(٤) الكشاف للزمخشري ٢/١ بتصرف الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ

وقال أبو حيان : "اختلفوا فيما به إعجاز القرآن فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوقل [١] ، في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر ولا داخلة تحت القدر" . [٢]

من هنا يظهر أنَّ البحث البلاغي يمثل عنصراً أساسياً – لا غنى عنه – في دراسة وتفسير كتاب الله المعجز ببيانه وفصاحته ، الباهر بنظمه وبلاغته ، إذ لا سبيل إلى الوقوف على خصائص تراكيبه ، وأسرار بيانه ، وغوامض لطائفه دون التمرس بأساليب البلاغة ، والبصر بضروب الفصاحة وتذوق جماليات اللغة ، وطرائق استعمالاتها والإلمام بما فاضت به قرائح المرتادين لشعاب هذا الفن ، وما هطلت به أفكار المحلقين في أفق هذا العلم .

وفي هذا البحث أعرض بمشيئة الله ﷻ- قدر الطاقة – الخصائص والأسرار البلاغية في

آيات جليلة من القرآن الكريم من قوله تعالى[وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا][٣]، إلى قوله تعالى [وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ

---

(١) وَقَلَ في الجَبَلِ يَقِلُ: صَعَّدَ، كتَوقَّلَ، ورَفَعَ رِجْلاً وأَثْبَتَ أُخْرَى. لسان العرب ١١/ ٧٣٣ مادة (و ق ل) ، القاموس المحيط للفيروزآبادى ١٠٦٩/١ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت الطبعة: الثامنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ١٧/١ المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ

(٣) سورة الكهف ١٨ الآية ٩٩

وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا] [1] لنقف على بعض أسرار هذه الآيات الكريمة متأملين متدبرين عظمة وبلاغة كلام رب العالمين، والله ﷻ الموفق والمستعان .

أسباب اختياري لهذا الموضوع :

أولاً : مشيئة الله تعالى وإرادته قال تعالى: [وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ] [2]

ثانياً : كشف بعض خصائص الأسلوب القرآني ومكمن العذوبة فيه، حيث إنَّ في دراسة المفسرين للقرآن الكريم ما يضيف جديداً للبلاغة العربية فإننا نجد في كتب التفسير بلاغة لا نجدها في كتب البلاغة ، لأنَّ التفسير تحليل وفهم وذوق.

ثالثاً : إبراز أهم الجوانب الفنية التي يتميز بها القرآن الكريم عن غيره من كلام البشر، فضلاً عن إظهار ذلك التناسق اللفظي في الفواصل القرآنية .

رابعاً: إدراك جمال الأسلوب القرآني، وإثبات خصوصيته مما يستدعي إفراد دراسته بمصطلحات جديدة ومتميزة .

خامساً : التأكيد على التناسق الكبير بين العبارة والموضوع في الخطاب القرآني ، وأنه لا تستطيع أية كلمة أن تحل محل الأخرى .

سادساً : إيماني بأنَّ موضوع هذا البحث من أجَلِّ ما يصرف فيه طالب العلم وقته وجهده، ذلك لأنه مرتبط بكتاب الله تعالى ، وهو أعظم ما صرفت في الأعمار .

خطة البحث :

قسَّمت البحث إلى : تقديم ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة

---

(١) سورة مريم ١٩ من الآية ٢١

(٢) سورة التكوير ٨١ الآية ٢٩

فالتقديم : بَيَّنت فيه منزلة علم البلاغة من علوم العربية، وأهميته في تفسير كتاب الله تعالى، وأسباب اختياري لهذا الموضوع ، وخطة البحث ، والخطوات التي اتبعتها في إعداده.

و التمهيد : عرَّفت فيه بكل من البلاغة، والفصاحة ، والفرق بينهما ، وبينت علوم البلاغة .

والفصل الأول : **درست فيه الخصائص البلاغية في سورة الكهف** من قوله تعالى [وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا] إلى آخر السورة الكريمة

وفيه تمهيد ومبحثان :

فالتمهيد : جعلته بين يدي السورة الكريمة لبيان هل هي مكية أم مدنية ، وتسميتها، وعدد آياتها، وصلتها بما قبلها ، ومقاصدها ، وفضلها .

وفي المبحث الأول: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن: الكافرين وعاقبتهم يوم القيامة.

وفي المبحث الثاني: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن: جزاء المؤمنين وسعة علم الله ﷻ ووحدانيته .

والفصل الثاني: **درست فيه الخصائص البلاغية في سورة مريم** من أول السورة إلى قوله تعالى {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا}

وفيه تمهيد ومبحثان :

فالتمهيد : جعلته بين يدي السورة الكريمة لبيان هل هي مكية أم مدنية ، وتسميتها، وعدد آياتها، وصلتها بما قبلها ، ومقاصدها .

وفي المبحث الأول: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن قصة زكريا ويحيى عليهما السلام .

وفي المبحث الثاني: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن: قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام .

أمَّا الخاتمة : فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، ثم ألحقت بها ثلاثة فهارس: الأول للمراجع، والثاني للخصائص البلاغية الواردة في البحث، والثالث للموضوعات .

وكانت خطواتي في إعداد هذا البحث على النحو التالي :

١) قدَّمت لهذا البحث بتقديمٍ بَيَّنت فيه أهمية الموضوع ، وأسباب اختياري له ، وخطة البحث ، ومنهجي فيه .

٢) كتبت تمهيداً عاماً عرفت فيه بالبلاغة ، وعلومها ، والفرق بينها وبين الفصاحة .

٣) كما كتبت تمهيداً خاصاً لكل فصل ، عرفت فيه بكل سورة من السورتين محل البحث .

٤) وضعت كل عدة آيات تحت عنوان ملائم لموضوعها ليسهل دراستها وتحليلها .

٥) مَهَّدتُ – في الكثير الأغلب – لدراسة كل آية بذكر مناسبتها لما قبلها ، والمعنى الإجمالي لها ، وبيان المفردات الغريبة بها.

٦) استخرجت الخصائص والصور البلاغية الواردة في الآيات محل البحث وعرَّفْتُ بها من كتب البلاغة المعتمدة، في أول موضع وردت فيه ، والتزمت عدم الإعادة خشية التكرار .

٧) دَرَسْتُ هذه الصور والخصائص الواردة في البحث دراسة جيدة ، وراجعت أشهر كتب البلاغة ، وأشهر كتب التفسير وأسلمها منهجاً للوقوف على معنى الآية ، والتأكد من صحة الاستدلال والاستنباط.

٨) بيَّنْتُ- قدر الطاقة- جمال هذه الصور والأسرار البلاغية في الأسلوب القرآني، ووضحت سرها البلاغي، وأثره في إظهار روعة الإعجاز القرآني .

٩) ذَكرتُ الأوجه الإعرابية في الآية محل الدراسة – كثيراً –، وهذا بقدر ما تدعو إليه ضرورة إيضاح المعنى أو إبرازه .

١٠) عزوتُ القراءات الواردة إلى أصحابها، مع تخريجها من كتب القراءات المعتمدة.

١١) كتبتُ الآيات والكلمات القرآنية بالرسم العثماني خوفاً من الخطأ، مع عزوها بذكر اسم السورة، ورقمها، ورقم الآية .

١٢) خرَّجت الأحاديث النبوية من كتب الحديث المعتمدة من أكثر من كتاب، وإذا كان الحديث في البخاري أو مسلم أكتفي بذكر أحدهما .

١٣) ضبطتُ – كثيراً- الكلمات التي يصعب قراءتها دون ضبط، مع توضيح بعض الكلمات التي يلتبس معناها على بعض الأذهان .

١٤) ختمتُ البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها ، ثم كتبت قائمة بالمراجع التي أفدت منها ، ثم فهرساً للصور البلاغية، وآخر للموضوعات .

تمهيد :

أولاً : تعريف البلاغة والفصاحة

البلاغة في اللغة : الوصول والانتهاء وبَلَغَ الْمَكَانَ وَصَلَ إِلَيْهِ وَكَذَا إِذَا شَارَفَ عَلَيْهِ، وسُمّيت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه.

والبلاغة: " الفَصَاحَةُ، ورجل بَلِيغٌ وبَلْغٌ وبِلْغٌ : حَسَنُ الكلام فَصِيحُه يُبْلِغُ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه والجمع بُلَغَاءُ، والبَلْغُ والبِلْغُ: البليغ من الرجال، وقد بَلُغَ بالضم بلاغة أي: صار بليغاً، وقَوْلٌ بَلِيغٌ : بالغٌ . (١)

والفصاحة في اللغة: البيان والظهور، فَصُحَ الرجلُ فَصاحة، فَهُوَ فَصِيح مِنْ قَوْمٍ فُصَحاء وفِصاحٍ وفُصُحٍ ، ويقال: أفصح الصبي في منطقه، وفصح فيه: إذا بان وظهر كلامه، كما يقال: أفصح الأعجمي، وفصح: إذا انطلق لسانه بالعربية لا تشوبه لُكْنة ، ويقال: أفصح الصبح: إذا بدا ضوؤه ولمع، وأفصح اللبن: إذا نزعت رغوته فظهر. (٢)

أمَّا معناهما في الاصطلاح : فيختلف باختلاف موصوفهما ، وهو في البلاغة أحد أمرين : الكلام، والمتكلم ، أما الفصاحة فموصوفها أحد أمور ثلاثة: الكلمة، والكلام، والمتكلم.

ذلك لأن الكلام يوصف بهما فيقال: قصيدة فصيحة أو بليغة، ورسالة فصيحة أو بليغة، ويوصف بهما أيضاً المتكلم نحو: شاعر

---

(١) مختار الصحاح للرازي ٣٩/١ مادة (ب ل غ) تحقيق : يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية بيروت - صيدا الطبعة : الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، الصناعتين لأبي هلال العسكري ٦/١ تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العصرية بيروت عام: ١٤١٩ هـ ، لسان العرب ٤٢٠/٨

(٢) لسان العرب ٥٤٤/٢ مادة (ف ص ح)، المعجم الوسيط ٦٩٠/٢

فصيح أو بليغ ، وكاتب فصيح أو بليغ ، وتختص الفصاحة بالكلمة المفردة فيقال: كلمة فصيحة، ولا يقال كلمة بليغة . (١)

وعليه فلابد من تعريفهما حسب هذا التقسيم ، فأقول وبالله التوفيق:

١) بلاغة الكلام: هي مطابقته لمقتضى حال الخطاب، مع سلامته من العيوب المخلة بفصاحته، وفصاحة أجزائه.

و"حال الخطاب" أي: المقام الذي ورد فيه الخطاب، وهو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد كلامه في صورة خاصة ، و"مقتضى الحال" هو تلك الصورة الخاصة التي ورد عليها كلام المتكلم ، و"مطابقة الكلام للمقتضى" هي اشتماله على هذه الصورة الخاصة .

فإنكار المخاطب مثلاً "حال" لأنه أمر يحمل المتكلم على أن يورد كلامه على صورة

التأكيد محوًا لهذا الإنكار، وصورة التأكيد التي ورد عليها الكلام هي مقتضى الحال، واشتمال الكلام على هذه الصورة هو معنى مطابقته للمقتضى . (٢)

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١٩/١ تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الثالثة ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف : عبد المتعال الصعيدي ١/ ١١ الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م

(٢) الإيضاح ٤١/١ ، بغية الإيضاح ٢٤/١ ، البلاغة العربية لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ١٢٩/١ ، الناشر: دار القلم بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ -

٢) بلاغة المتكلم : هي ملكة أو صفة قائمة بالمتكلم راسخة فيه، يتمكن بها متى شاء من تأليف كلام بليغ في أي معنى يريده .

يقول المراغي: هي ملكة يقتدر بها على التصرف في فنون الكلام وأغراضه المختلفة، ببديع القول وسحر البيان، ليبلغ من المخاطب غاية ما يريد. (١)

٣) فصاحة الكلمة : هي خلو الكلمة العربية من أربعة عيوب وهي: التنافر، والغرابة، ومخالفة القياس، وكراهة السمع لها. (٢)

٤) فصاحة الكلام : هي خلوصه من العيوب الثلاثة الآتية: ضعف التأليف، وتنافر الكلمات مجتمعة، والتعقيد، ويدخل فيها–عند بعض البلاغيين– كثرة التكرار، وتتابع الإضافات. (٣)

٥) فصاحة المتكلم: هي ملكة أي: صفة قائمة بنفس المتكلم راسخة فيه، يستطيع بها أن يعبر تعبيرًا صحيحاً عما يجول بخاطره، ويجيش في صدره من الأغراض والمقاصد .

يقول الخطيب: " وقيل: ملكة ولم يقل صفة، ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة، حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحًا ، إلا إذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه.

١٩٩٦ م ، المنهاج الواضح للبلاغة المؤلف: حامد عوني ٢٨/١ الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث

(١) علوم البلاغة ٣٩/١ ، الإيضاح ٤٩/١ .

(٢) الإيضاح ٢١/١ ، بغية الإيضاح ١١/١ ، البلاغة العربية ١١١/١

(٣) الإيضاح ٢٨/١ ، المنهاج الواضح للبلاغة ١٨/١

وقيل يقتدر بها، ولم يقل يعبر بها، ليشمل حالتي النطق وعدمه، وقيل: بلفظ فصيح، ليعم المفرد والمركب ." (١)

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة: ومع الهبة الفطرية لا يكون المتكلم فصيحاً في اللسان العربي، حتى يكون ملماً باللغة العربية، عالماً بقواعد نحوها وصرفها، واسع الاطلاع على مفرداتها ومعانيها الدقيقة، كثير النظر في كتب الأدب، مطلعاً على أقوال كبار الفصحاء، له دراية بأساليب العرب في شعرهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم، حافظاً لطائفة جمة من عيون كلام فصحائهم وبلغائهم من أهل النثر وأهل الشعر، وأن يمارس موهبته بالتطبيقات العملية، حتى يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده وما يجول في نفسه من معان بكلام فصيح. (٢)

<u>ومن هذه التعريفات يتضح أمران :</u>

<u>الأول:</u> أنَّ الفصاحة أعم، والبلاغة أخص: " فكل كلام بليغ لا بد أن يكون فصيح المفردات والجمل، ولذلك كان كل كلام بليغ كلاماً فصيحاً، وكان كل متكلم بليغ متكلماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً ولا يكون بليغاً، لأن الفصاحة أعم، والبلاغة أخص دائماً، فكل بليغ فصيح، كلاماً أو متكلماً، وليس كل فصيح بليغاً، فالكلام الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتى يكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب به.

---

(١) الإيضاح ٤٠/١ ، بغية الإيضاح ٢٣/١ ، علوم البلاغة ٣٤/١ ، المنهاج الواضح للبلاغة ٢٥/١

(٢) البلاغة العربية ١٢٧/١

الثاني : أن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره . (١)

ثانياً :في الفرق بين البلاغة والفصاحة

من العلماء من يرى أن الفصاحة، والبلاغة، والبيان، ألفاظ مترادفة لا تتصف بها المفردات وإنما يوصف بها الكلام بعد توخي معاني النحو فيما بين الكلم بحسب الأغراض التي يصاغ لها .

وإلى ذلك أشار الإمام عبد القاهر: حيث قال: " فصل في تحقيق القول على البلاغة، والفصاحة، والبيان، والبراعة، وكل ما شاكل ذلك مما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات، وسائر ما يجري مجراها،..... غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة " ، ثم قال: " ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويُختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية ". (٢)

ويرى بعضهم إخراج الفصاحة من كَنَفَ البلاغة، ويجعلونها اسماً لما كان بِبُعْدٍ من تنافر الحروف وغرابة الألفاظ ومخالفة القياس .

---

(١) الإيضاح ٤٩/١ ، بغية الإيضاح ٢٩/١ ، البلاغة العربية ١٣١/١

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني ٩٠/١ تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة : الأولى،١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

ويجعلون البلاغة اسماً لما طابق مقتضى الحال مع الفصاحة، وعلى هذا الرأي فالبلاغة كل والفصاحة جزؤه، وعليه أيضاً فالفصاحة من صفات المفرد كما هي من صفات المركب. (١)

ومن هؤلاء أبو هلال العسكري، والسكاكي، وابن الأثير، ومن وافقهم .

يقول أبو هلال: فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين؛ وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى؛ والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.(٢)

ويرى السكاكي أن" البلاغة بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، وأما الفصاحة فهي عنده قسمان: قسم يرجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد المعنوي، وقسم يرجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية جارية على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم، لا مما أحدثه المولدون، ولا مما أخطأت فيه العامة، وأن تكون سليمة من التنافر ". (٣)

وذهب ابن الأثير إلى أنه: " يحتاج في تأليف الكلمات إلى ثلاثة أشياء: اختيار الألفاظ المفردة، ونظم كل كلمة مع أختها بحيث لا يكون هناك قلق ولا منافرة، والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف

---

(١) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي ٥٩/١ ط : دار الكتب العلمية ط:الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م ، علوم البلاغة ١٤/١،١٥

(٢) الصناعتين ٨/١

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي ٤١٥/١ ضبطه: نعيم زرزور نشر : دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ

أنواعه...، والأول والثاني عنده هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة ". [١]

ثالثاً :أنواع علم البلاغة

يتنوع علم البلاغة إلى ثلاثة علوم هي :

الأول : علم المعاني وهو أصول وقواعد يعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقاً لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له.

وموضوعه: اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني الثواني، التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، من جعل الكلام مشتملاً على تلك اللطائف والخصوصيات، التي بها يطابق مقتضى الحال.[٢]

الثاني : علم البيان وهو أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى .

وموضوع هذا العلم: الألفاظ العربية، من حيث، التشبيه، والمجاز، والكناية . [٣]

---

(١) المثل السائر لابن الأثير١٦٣/١ تحقيق : أحمد الحوفي، بدوي طبانة الناشر: دار نهضة مصر للطباعة الفجالة ـ القاهرة

(٢) الإيضاح ٥٢/١، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ٤٧/١ ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت

(٣) جواهر البلاغة ٢١٦/١ ، علوم البلاغة ٢٠٧/١

الثالث : علم البديع وهو علم يعرف به الوجوه، والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة، وتكسوه بهاء، بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظاً ومعنى. (١)

(١) جواهر البلاغة ٢٩٨/١ ، البلاغة العربية ٣٦٨/٢

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الفصل الأول

الخصائص البلاغية في سورة الكهف

من قوله تعالى [وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا]
إلى آخر السورة الكريمة (١)

وفيه تمهيد ومبحثان :

فالتمهيد : **بين يدي السورة الكريمة**

والمبحث الأول : **الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :**
الكافرين وعاقبتهم يوم القيامة

والمبحث الثاني: **الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :**
جزاء المؤمنين وسعة علم الله ﷻ ووحدانيته

(١) سورة الكهف ١٨ الآيات ١٠٠-١١٠

تمهيد

بين يدي السورة الكريمة

١) مكيتها أو مدنيتها: سورة الكهف قيل إنها مكية كلها، وهو قول جمهور العلماء، ونقل القرطبي وغيره الإجماع في ذلك، ولم يذكرها السيوطي في السور المختلف فيها . (١)

وقال بعضهم مكية إلا ثلاثة مواضع منها هي: من أوّلها إلى قوله ﷻ: [صَعِيدًا جُرُزًا] (٢) **وقوله :**[وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَۖ ...] (٣) **، وقوله :** [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...] **إلى آخر السورة** (٤).(٥)

٢) تسميتها: تسمى أية سورة من سور القرآن الكريم بالاسم الذي يذكر من خلال نص، أو من خلال مضمون السورة .

وهذه السورة سميت بسورة الكهف ، لبيان قصة أصحاب الكهف العجيبة الغريبة فيها ، وذكر السيوطي أنه يقال لها سورة أصحاب الكهف، وروي عن ابن عباس ﷺ **" أنها تدعى في التوراة الحائلة أي التي تحول**

---

(١) زاد المسير ٦٣/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٤٦/١٠ الإتقان ٥٦/١ ، المحرر الوجيز ٤٩٤/٣

(٢) سورة الكهف ١٨ الآيات ١ـ ٨

(٣) السورة السابقة ١٨ الآية ٢٨

(٤) السورة السابقة ١٨ الآيات ١٠٧ ـ ١١٠

(٥) الكشاف ٧٠٢/٢ التسهيل لعلوم التنزيل ٤٥٨/١ الإتقان ٦١/١ ، روح المعاني ١٩٠،١٨٩/٨

بين قارئها وبين النار" [1] ، [2]، وهذا من الأسماء الاجتهادية .

٣) عدد آياتها : اختُلف في عدد آياتها : فهي مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشرة عند الكوفيين ، ومائة وست عند الشاميين، ومائة وخمس عند الحجازيين .

واختلافهم هذا- وهو ليس حقيقياً- جاء في إحدى عشرة آية، ذكرها الداني في البيان، والشيخ عبد الفتاح القاضي في الفرائد الحسان.[3]

٤) <u>صلة السورة بما قبلها :</u> هذه السورة شديدة الصلة والارتباط بما قبلها وذلك يؤكد الوحدة الموضوعية في آي وسور القرآن الكريم ، وقد ذكر العلماء في ارتباط هذه السورة بما قبلها وجوهاً كثيرة أذكر منها ما يلي:

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وقال: تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَهُوَ مُنْكَرٌ تحقيق: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد ٨٧/٤ رقم ٢٢٢٣ الناشر: مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ط: الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م

(٢) الإتقان ١٩٣/١ ، روح المعاني ١٩٠،١٨٩/٨ ، التفسير المنير ١٩٥/١٥-١٩٩

(٣) البيان في عدّ آي القرآن المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني ١٧٩/١ المحقق: غانم قدوري الحمد الناشر: مركز المخطوطات والتراث - الكويت الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م ، الفرائد الحسان في عد آي القرآن المؤلف: عبد الفتاح ابن عبد الغني بن محمد القاضي ٤٢/١الناشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ

أ- افتتحت سورة الإسراء بالتسبيح، وسورة الكهف بالتحميد، وهما مقترنان في سائر الكلام ، بحيث يسبق التسبيح التحميد، قال تعالى: [فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ] (١) ، وجاء في الحديث :

«سبحان الله وبحمده»(٢) ، كما اختتمت سورة الإسراء بالتحميد أيضاً، فتشابهت الأطراف كذلك.

ب – ختمت سورة الإسراء بأمر الرسول ﷺ بحمد الله ﷻ وتنزيهه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، وبدئت سورة الكهف هذه بالإخبار عن استحقاقه ﷻ الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص.

ج – ذكر الله ﷻ في سورة الإسراء قوله: [وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا] (٣) والخطاب فيها لليهود، وذكر هنا قصة موسى نبي بني إسرائيل مع الخضر -عليهما السلام- وهى تدل على كثرة معلومات الله التي لا تحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم . (٤)

---

(١) سورة الحجر ١٥ من الآية ٩٨

(٢) أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح ٨٦/٨ رقم ٦٤٠٥ صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

(٣) سورة الإسراء ١٧ من الآية ٨٥

(٤) نظم الدرر ٢،١/١٢ ، روح المعاني ١٩٠،١٨٩/٨ ، تفسير المراغي ١١٣/١٥ ، التفسير المنير ١٩٥/١٥-١٩٩

٥) مقاصدها :

أولاً : استهلت السورة بالثناء على الله ﷻ وبالتنويه بشأن النبي محمد ﷺ ، ثم وصفت القرآن الكريم بأنه قيم مستقيم، لا اختلاف فيه ولا تناقض لا في لفظه ولا في معناه، وأنه جاء للتبشير والإنذار .

ثانياً : تحدثت السورة عن ثلاث قصص من روائع قصص القرآن وهي: قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين.

أما قصة أصحاب الكهف فهي مثل عال ، ورمز سام للتضحية بالوطن والأهل والأقارب والأصدقاء والأموال في سبيل العقيدة، فقد فرَّ هؤلاء الشباب الفتية المؤمنون بدينهم من بطش الملك الوثني، واحتموا في غار في الجبل، فأنامهم الله ثلاث مائة وتسع سنين قمرية، ثم بعثهم ليقيم دليلاً حسياً للناس على قدرته على البعث .

وأما قصة موسى مع الخضر فكانت مثلاً للعلماء في التواضع أثناء طلب العلم، وأنه قد يكون عند العبد الصالح من العلوم – في غير أصول الدين وفروعه– ما ليس عند الأنبياء، بدليل قصة خرق السفينة، وحادثة قتل الغلام، وإقامة الجدار.

وأما قصة ذي القرنين فهي عبرة للحكام والسلاطين، إذ إن هذا الملك تَمَكَّن من السيطرة على العالم، ومشرق الأرض ومغربها، وبنائه السد العظيم بسبب ما اتصف به من التقوى والعدل والصلاح.

وتخللت هذه القصص أمثلة ثلاثة بارزة رائعة مستمدة من الواقع، لإظهار أن الحق لا
يقترن بالسلطة والغنى، وإنما يرتبط بالإيمان، والعمل الصالح .

وأول هذه الأمثلة : قصة صاحبي الجنتين للمقارنة بين الغني المغتر بماله، والفقير المعتز بإيمانه، لبيان حال فقراء المؤمنين وحال أغنياء المشركين.

وثانيها: مثل الحياة الدنيا لإنذار الناس بفنائها وزوالها ، وأردف ذلك بإيراد بعض مشاهد القيامة الرهيبة من تسيير الجبال ، وحشر الناس في صعيد واحد ، ومفاجأة الناس بصحائف أعمالهم .

وثالثها: قصة إبليس وإبائه السجود لآدم عليه السلام للموازنة بين التكبر والغرور، وما أدى إليه من طرد وحرمان وتحذير الناس من شر الشيطان، وبين العبودية لله والتواضع، وما حقق من رضوان الله تعالى.

ثالثاً : ختمت السورة بالحديث عن موضوعات ثلاثة هي:

أ – : إعلان تبديد أعمال الكفار وضياع ثمرتها في الآخرة .

ب – : تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالنعيم الأبدي الأخروي .

ج – : أن علم الله تعالى لا يحده حد ولا نهاية له. [1]

٦) <u>فضلها :</u>

ورد في فضائل سورة الكهف أحاديث كثيرة أصحها : ما رواه مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عُصِمَ من الدجال ». [2]

---

(١) التفسير المنير ١٩٦/١٥-١٩٩ ، التفسير الوسيط ٤٥٩/٨-٤٦٣ ، التفسير الواضح ٤٠٣/٢

(٢) أخرجه مسلم باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي ٥٥/١ رقم ٨٠٩ صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء ﷺ قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين[1] ، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن». [2]

(١) الشَّطَنُ: الحَبْل، وَقِيلَ: الْحَبْلُ الطَّوِيلُ الشديدُ الفَتْل يُسْتَقى بِهِ وتُشَدُّ بِهِ الخَيْل، وَالْجَمْعُ أَشْطان . لسان العرب٢٣٧/١٣ ، المعجم الوسيط ٤٨٣/١

(٢) صحيح البخاري باب فضل سورة الكهف ١٨٨/٦ رقم ٥٠١١

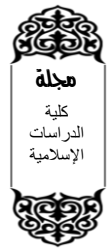
مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

المبحث الأول

الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن:

الكافرين وعاقبتهم يوم القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾] [1]

جاءت هذه الآيات الكريمة بعد قصة ذي القرنين، وما اشتملت عليه من العبر والعظات، لتذكير النَّاس ببعض أهوال يوم القيامة لعلهم يتوبون ويتذكرون .

قوله تعالى :[وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾]

عطفت جملة [وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] على جملة: [جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا] [2]: لاتفاقها معها في الخبرية لفظاً ومعنى، مع وجود المناسبة بينهما وهي التقارن في الخيال في المسند[3] والاتحاد في

(١) سورة الكهف ١٨الآيات ٩٩-١٠٦

(٢) السورة السابقة من الآية ٩٨

(٣) مواضع المسند هي: الفعل التام، واسم الفعل، والمبتدأ المكتفي بمرفوعه عن الخبر، وخبر المبتدأ، وما أصله خبر المبتدأ كأخبار الأدوات

المسند إليه، وليس هناك ما يمنع من العطف، وهو ما يعرف عند البلاغيين: بـ التوسط بين الكمالين مع عدم المانع. (١)

وجاء الوصل بواو العطف لكون الحديث في موضوع واحد هو يوم القيامة ، لذلك كان أدعى إلى الاتصال ، وهذا ما صرح به الإمام عبد القاهر حيث أخبر في باب الفصل والوصل(٢) أنه لا يصح الوصل في الجمل: " حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً (٣) لمعنى في الأخرى،

الناسخة، وكالمفعول الثاني لظن وأخواتها، والمفعول الثالث لأرى وأخواتها، والمصدر النائب عن فعل الأمر .

أمَّا مواضع المسند إليه فهي: فاعل الفعل التام، ونائب الفاعل، والمبتدأ الذي له خبر، وما أصله المبتدأ كأسماء الأدوات الناسخة، وكالمفعول الأول لظن وأخواتها، والمفعول الثاني لأرى وأخواتها. المنهاج الواضح١٨/٤ ، جواهر البلاغة ٩٩/١

(١) أي التوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال وهو أن تكون الجملتان متناسبتين وبينهما رابطة ولا يمنع من العطف مانع مثل اجتهدوا وتأدبوا. الإيضاح ١٢٧/٢ ، جواهر البلاغة في ١٨٥/١

(٢) الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف بين الجملتين، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى وهو من علم المعاني . قال الهاشمي: وهو باب صعب المسلك، لا يُوفّق للصواب فيه إلاّ من أوتى قسطاً موفوراً من البلاغة، ورُزق حظا من المعرفة في ذوق الكلام، وذلك لغموض هذا الباب، ودقة مسلكه، وَعظيم خطره وكثير فائدته، يدل لهذا، أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة فقد سئل عنها بعض البُلغاء، فقال: هي «معرفة الفصل والوصل» . جواهر البلاغة ١٧٩/١

(٣) لفقا له : لَفَقَ الثَّوبَ يَلْفِقُه: ضَمَّ شُقَّةً إلى أُخْرَى، فَخَاطَهُما . القاموس المحيط للفيروزآبادى ٩٢٢/١ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

ومضامّا [1] له، مثل: أنّ « زيداً» و«عمراً» إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما، من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك، مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شكّ وكذا السبيل أبداً.

والمعاني في ذلك كالأشخاص، فإنّما قلت مثلاً: «العلم حسن والجهل قبيح»، لأنّ كون العلم حسناً مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيحاً .

واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: « هو يقول ويفعل ، ويضرّ وينفع ، ويسيء ويحسن ، ويأمر وينهى » وأشباه ذلك ، ازداد معنى الجمع في « الواو » قوة وظهوراً " . [2]

وقد أشار إلى هذه الصورة البلاغية كثير من المفسرين ومنهم أبو السعود حيث قال: "{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} كلامٌ مَسوقٌ من جنابه تعالى معطوفٌ على قوله تعالى {جَعَلَهُ دَكَّاء} ومحقِّقٌ لمضمونه " [3]

---

(١) ضم الأشياء جمع بَعْضهَا إِلَى بعض وَضم الشَّيْء إِلَى الشَّيْء أَضَافَهُ إِلَيْهِ ، و(ضامه) إِلَيْهِ مضامة وضماماً ضمه وَفُلَان انْضَمَّ مَعَه أَو إِلَيْهِ فِي أَمر وَاحِد . المعجم الوسيط ٥٤٤/١

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني ١٥٠/١

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢٤٧/٥ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٨/ ٣٦٤ تحقيق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

والفعل ترك [١] **بمعنى جعل وصيَّر، فهو من الأفعال التي تدل على تحويل الشيء من حالة إلى حالة أخرى ولا يستعمل إلا بصيغة الماضي، وينصب مفعولين الأول: {بَعْضَهُمْ}، والثاني: جملة {يَمُوجُ}، ومن العلماء من ينصب بـ "ترك" مفعولاً واحداً، وينصب الثاني على الحال .** [٢]

والضمير في قوله تعالى: [وَتَرَكْنَا] يعود على الله ﷻ، فهو من استعمال ضمير الجمع للدلالة على التعظيم ويسمى ضمير المتكلم المعظم نفسه .

واستعمال الفعل الماضي: في قوله تعالى {وَتَرَكْنَا} تعبيراً عن المستقبل، للدلالة على تحقق الوقوع ، وأن ما هو متحقق الوقوع كالواقع. [٣]

---

(١) وحقيقة الترك الرفض والمفارقة قال الراغب : تَرْكُ الشيء: رفضه قصداً واختياراً، أو قهراً واضطراراً، فمن الأول: [وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] الكهف/ ٩٩ومن الثاني: [كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ] الدخان/ ٢٥ . المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى١٦٦/١ تحقيق : صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٤٦/٢ المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي الناشر: دار الفكر ، ضياء السالك إلى أوضح المسالك المؤلف: محمد عبد العزيز النجار١/ ٣٧٣ الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

(٣) من أحوال المسند التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، تنبيهًا على تحقق وقوعه ، وأن ما هو للوقوع كالواقع. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٩٦/٢

وضمير الجمع: في قوله ﷻ [بَعْضَهُمْ] إمَّا أن يراد به الإنس والجن عامة ، ويكون المراد باليوم في قوله تعالى [يَوْمَئِذٍ] يوم القيامة ، ويؤيده أنه تقدم ذكره في قوله [فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي] (١)

ويقويه أيضاً قوله تعالى بعد ذلك [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ]، والمعنى : وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وعدنا الذي وعدناهم، بعضهم يموج في بعض، أي: يختلط جِنُّهُمْ بِإِنْسِهِمْ، ورجَّح هذا الرأي كثير من المفسرين . (٢)

وإمَّا أن يراد بالضمير يأجوج ومأجوج ، والمراد باليوم : يوم تمام بناء السد الذي بناه ذو القرنين والمعنى: وتركنا يأجوج ومأجوج يوم انقضاء السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم ، واستظهر أبوحيان هذا الرأي ، وصححه الواحدي وغيرهما . (٣)

---

(١) سورة الكهف ١٨ من الآية ٩٨

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٢٠/١٨ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٥/١١ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٤٧٥/١ تحقيق : الدكتور عبد الله الخالدي الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢٢٨/٧ ، التفسير البسيط للواحدي، ١٦٠/١٤الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ ، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١١١/٣ تحقيق : عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

وفي قوله تعالى: [يَوْمَئِذٍ] إيجاز بالحذف (١)

حيث حذف المضاف إليه وعوض عنه بالتنوين، والتقدير: يوم إذ جاء وَعْدُ ربي، وقد أفاد الحذف هنا الإيجاز والاختصار في الكلام .

يقول السمين : قوله: «يومئذ» التنوين عوض عن جملة محذوفة ، تقديرها: يوم إذ جاء وعد ربي، أو إذ حجز السد بينهم . (٢)

وقد بَيَّن الجرجاني أهمية الحذف بأنه : باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنك ترى به تركُ الذّكر، أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبن . (٣)

والموج في قوله تعالى [يَمُوجُ] هو الاختلاط والاضطراب . (٤)

---

(١) الإيجاز : هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، وينقسم إلى قسمين: إيجاز قِصرٍ يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، كقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) سورة البقرة٢ من الآية ١٧٩ .
وإيجاز حذف ويكون بحذف شيء من العبارة لا يخلّ بالفهم عند وجود ما يدل على المحذوف، من قرينة لفظية أو معنوية . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ١٩٨،١٩٩

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٥٥١/٧ المحقق: د/ أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق

(٣) دلائل الإعجاز ١٠٠/١

(٤) قال في اللسان : الموج : ما ارتفع من الماء فوق الماء، وقد ماج البحر يموج موجا، وتموج : اضطربت أمواجه ، وموج كل شيء وموجانه : اضطرابه وماج الناس: دخل بعضهم في بعض . لسان العرب ٣٧٠/٢ مادة (م وج)

وفي قوله تعالى: [يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] استعارة [١] تبعية [٢]

حيث شبه حركة الخلق، أو يأجوج ومأجوج واضطرابهم بالموج، ثم اشتق من الموج بمعنى التحرك والاضطراب يموج بمعنى يتحرك، لاشتراك المستعار والمستعار له في الحركة على سبيل الاستعارة التبعية .

---

(١) الاستعارة في اللّغة : طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمناً ما دون مقابل ، على أن يَرُدَّه المستعير إلى الْمُعِير عند انتهاء المدّة الممنوحة له ، أو عند الطلب ، وفي الاصطلاح : استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاحٍ به التخاطب ، لعلاقة المشابهة ، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب ، وأركانها أربعة : (١) اللفظ المستعار (٢) المعنى المستعار منه وهو المشبّه به (٣) المعنى المستعار له وهو المشبّه (٤) القرينة الصارفة عن إرادة ما وُضِع له اللّفظ في اصطلاحٍ به التخاطب.
وأصلُها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشَبّه وأداةُ التشبه ووجْهُ الشَّبَه، ولم يبق منه إلاَّ ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبَّه به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أوْ بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبَّه، مُلاَحَظاً في هذا الاستعمال ادّعاءُ أنَّ المشبَّه داخل في جنس أو نوع أو صِنْف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة الّتي هي وجه الشَّبَهِ بينهما، في رؤية صاحب التعبير . البلاغة العربية ٢٣٧/٢ ، جواهر البلاغة ٢٥٨/١

(٢) الاستعارة التبعيّة هي التي يكون اللفظ المستعار فيها " فِعْلاً مثل : أشْرَقَ - يُشْرِقُ - أَشْرِقْ أو اسماً مشتقاً، مثل: " جَارِح - مَجْروح - جَرِيح - أو حرفاً من حروف المعاني، مثل: "اللام الجارّة - مِنْ - في - لن -". البلاغة العربية ٢٣٠،٢٢٩/٢

وتوحي هذه الاستعارة بالحيرة وتردد بعضهم في بعض كالمولهين[١] من همٍّ وخوف . [٢]

وهي استعارة محسوس لمحسوس فالموجان ، حركة الماء في الأصل ، فاستعير للقلق والفشل والاضطراب في الأمر . [٣]

والجمال في كلمة { يَمُوجُ } لا يقف عند حد استعارتها لمعنى الاضطراب ، بل إنها تُصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشاداً لا تدرك العين مداه ، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب ، فهذه اللفظة في

(١) (الوله) ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد وَله فلَان يَله وَلها اشْتَدَّ حزنه حَتَّى ذهب عقله وتحير من شدَّة الوجد ، مختار الصحاح للرازي ٣٤٥/١ ، المعجم الوسيط ١٠٥٧/٢

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي ٥٤٤/٣ المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٥/١١ ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٥٤٣/٣ المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه ١٠٤/١ الناشر: المكتبة العصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

إطار نظم الآية المعجز قد استقلت برسم هذا المشهد بصوتها وجرسها وإيحائها . (١)

وعبَّر بالفعل المضارع { يَمُوجُ } لإفادة التجدد والحدوث (٢)، واستحضار الصورة والحالة في ذهن المتلقي التي سيكون فيها الناس في ذلك اليوم، فمجيء الموج على صيغة المضارع تلك الصيغة الكاشفة التي تصف الحدث – وهو يقع – أتم وصف وتبينه أبلغ بيان . (٣)

ووصلت جملة { ونفخ في الصور} بجملة {وتركنا بعضهم} لما بينهما من التوسط بين الكمالين مع عدم المانع حيث اتفقت الجملتان في الخبرية مع وجود المناسبة بينهما .

والنفخ في قوله [وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ] معناه: بعث الريح وإخراجه من الفم بقوة ليحدث صوتاً . (٤)

والصور : هو القرن الذي يُنفخ فيه للقيامة ، وهو قول جمهور المفسرين (٥) الذين ذهبوا إلى أن النفخ في الصور حقيقة على أن البوق

---

(١) من بلاغة القرآن المؤلف: أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي ١/ ١٦٧ الناشر: نهضه مصر – القاهرة عام : ٢٠٠٥ ، والإعجاز في نظم القرآن أ.د/ محمود السيد شيخون ص ١٢٣ طبعة دار الهداية للطباعة والنشر ط الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

(٢) قال الخطيب : إن من شأن الجملة الفعلية أن تدل على التجدد .الإيضاح ١٣٣/٢

(٣) جواهر البلاغة ٢٦٧/١

(٤) المعجم الوسيط ٩٣٨/٢

(٥) تفسير الطبري ١٢١/١٨ ، المحرر الوجيز ٥٤٤/٣ ، التسهيل لعلوم التنزيل ٤٧٥/١

هو قرن من خلق الله ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام نفخاً حقيقياً، وتفاصيل ذلك وكيفيته في علم الله تعالى ، ويؤيده قوله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنى الجبهة وأصغى بالأذن متى يؤمر»(١)

وذهب بعض المفسرين إلى أن في الآية استعارة مكنية(٢) تمثيلية(٣)

وذلك على أنه تشبيه لحال الداعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير، وبحال بقية الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج ، فحذف المشبه به وعبر عنه بلازم من لوازمه

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان الدارمي، البُستي ١٠٥/٣ رقم٨٢٣ تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وقال عنه إسناده صحيح على شرط الشيخين . الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت ط الثانية ١٤١٤ - ١٩٩٣

(٢) الاستعارة المكنية هي: التي حذف فيها لفظ المشبه به، استغناء بذكر شيء من لوازمه صفاته أو خصائصه ، فلم يذكر فيها من أركان التشبيه، سوى المشبه. بغية الإيضاح ٥٢٠/٣، جواهر البلاغة ١٦٠/١

(٣) الاستعارة التمثيلية هي اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل ، للمبالغة فيه ، أي: تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه ، فوجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد، وسميت تمثيلية مع أن التمثيل عام في كل استعارة، للإشارة إلى عظم شأنها كأن غيرها ليس فيه تمثيل أصلا . بغية الإيضاح ٥١٣/٣ ، جواهر البلاغة ٢٧٥/١

وهو النفخ في الصور واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه، على طريق الاستعارة التمثيلية. (١)

يقول القاسمي : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق، فإذا هم قيام ينظرون . (٢)

وعن بلاغة هذا النوع من الاستعارة يقول الهاشمي: "وهذه الاستعارة محط أنظار البلغاء، لا يعدلون بها إلى غيرها إلا عند عدم إمكانها، فهي أبلغ أنواع المجاز مفرداً أو مركباً. (٣)

إذ مبناها تشبيه التمثيل الذي قد عرفت أن وجه الشبه فيه هيئةٌ منتزعة من أشياء متعددة ومن ثَمَّ كانت هي والتشبيه المبنية عليه غرض البلغاء الذي يتسامون إليه، ويتفاوتون في إصابته، حتى كثر في القرآن الكريم كثرة كانت إحدى الحجج على إعجازه" . (٤)

وأتت جملة [وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا] للتخلص(٥) **من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره**

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/١٦ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٢/٩

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٧٨/٧ المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى - ١٤١٨هـ

(٣) قلت : لعله يقصد هذا في غير القرآن ، وإلا فالقرآن الكريم حافل بالاستعارة المفردة والمركبة (التمثيلية) ولا شك أن كل واحدة في موضعها لا تسد غيرها مسدها فالكل في أبلغ درجات المجاز . والله أعلم

(٤) جواهر البلاغة ٢٧٧/١

(٥) التخلص هو : الخروج والانتقال من فن إلى آخر بأحسن أسلوب مع لطف تخيل وحسن تخلص، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال لشدة الالتئام، كأنهما أفرغا في قالب واحد، وذلك يحرك من نشاط السامعين ويعين على إصغائهم . بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٧٠٩/٤ ، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي ٣٨٠/١

الله تعالى لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة .

وهو تخلص يؤذن بتشبيه حال اضطراب الناس، واختلاط حركتهم يوم القيامة بتموج الماء في البحر، وذلك في التحرك والسرعة والتخبط، تذكيراً للسامعين بأمر الحشر وتقريباً بحصوله في خيال المشركين، فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسّره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في الآخرة أعجب. (١)

والذي "يتأمل تخلصات القرآن الكريم- ومنها هذه الصورة- راعه حسنها وجمالها ، لما فيها من اللطائف والأسرار، والإتقان والإحكام الذي تنحني أمام عظمته جباه أساطين البيان" . (٢)

<u>وعبَّر عن النفخ بصيغة الماضي</u> : مع أنه لم يقع للدلالة على تحقق وقوعه .(٣)

<u>والتعبير بالفعل المبني للمجهول</u> {نُفِخَ}: لإفادة المسارعة إلى المطلوب فالذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام .

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤١/١٦ نشر : الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ.

(٢) من أسرار البلاغة في القرآن تأليف د/ محمود السيد شيخون ص ١٨٧ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

(٣) معترك الأقران للسيوطي ١٩٤/١ دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان الطبعة : الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

واستعمال الفاء في عطف الجمع على النفخ: للدلالة على الترتيب والتعقيب ففيه إشارة إلى سرعة الجمع عقب النفخ في الصور .

وأكد فعل الجمع بمصدره : لبيان أنه جمع حقيقي ليس من المجاز . (١)

والتوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات ، وإقرارها في أفئدتهم إقراراً ينتهي إلى الإيمان بها، وهو في القرآن الكريم وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه وإقراره في أفئدتهم حتى يصبح عقيدة من عقائدهم، كما استخدمه القرآن أيضاً لأسرار بلاغية لا يتم المعنى المقصود إلا بها، ومنها توكيد الفعل بالمصدر لدفع توهم المجاز. (٢)

ونكَّر [جَمْعًا] لإفادة التهويل (٣) **أي : جمعاً عجيباً لا يُكتَنه كُنهُه.** (٤). (٥)

قوله تعالى : [وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾] (٦)

(١) التحرير والتنوير ٤٢/١٦ ، من أسرار البلاغة في القرآن ص ٨٣
(٢) من أسرار البلاغة في القرآن ص ٨٣، ٨٧
(٣) التهويل بالنسبة للبشر
(٤) الكُنْهُ: نهايةُ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتُهُ، وكُنْهُ كلِّ شيءٍ قَدْرُه ونِهايتُه وغايَتُه. لسان العرب ٥٣٧/١٣ مادة (ك ن هـ)
(٥) إرشاد العقل السليم ٢٤٧/٥ ، روح المعاني ٣٦٤/٨
(٦) سورة الكهف ١٨ الآية ١٠٠

وصلت جملة : [وَعَرَضْنَاجَهَنَّمَ] بالجملة السابقة بواو العطف للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى، مع وجود المناسبة بينهما، وليس هناك ما يمنع من العطف .

والعرض هو: الظهور والبروز(١) والمعنى: وأبرزنا وأظهرنا جهنم حتى ينظر إليها الكفار ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهَمّ والحزن لَهُمْ. (٢)

وعبَّر عن العرض بالفعل الماضي للدلالة على تحقق وقوعه .

وفي قوله {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} استعارة عنادية تهكمية (٣) فالعرض عادة يكون في إظهار ما فيه رغبة وشهوة، فاستعماله هنا في رؤية العذاب استعارة تهكمية، جيء بها للتهكم والسخرية بالكفار، فاستعير لفظ"العرض" المستعمل في إظهار الشيء المرغوب، لرؤية العذاب الذي

---

(١) مختار الصحاح ٢٠٥/١ مادة (ع رض)

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ١٢٢/١٨ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٠١/٥ المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ، محاسن التأويل ٧٨/٧

(٣) الاستعارة العنادية : ما لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد؛ لما بين الطرفين من التعاند، كاستعارة "اسم المعدوم للموجود عديم الجدوى" في قولك: "رأيت ميتا يتحدث" أي: جاهلاً .

والتهكمية فرع عنها وهي ما نزل فيها التضاد، أو التناقض منزلة التناسب، واستعمل اللفظ في ضد معناه ، أو في نقيضه؛ إبرازا للخسيس في صورة الشريف لقصد الهزء والسخرية ، وذلك كأن يطلق لفظ "الكريم" على البخيل، في نحو قولك: "زارني اليوم كريم" . بغية الإيضاح ٤٩٠/٣ ، علوم البلاغة ٢٦٦/١ المنهاج الواضح للبلاغة ٣/ ٢٣٨

هو ضده، لإدخال العقاب في جنس الثواب، لتنزيل التضاد بين الثواب والعقاب منزلة التناسب بواسطة التهكم .

والاستعارة هنا تصريحية [١] ، للتصريح فيها بلفظ المشبه به وهو العرض .

كما أنها تبعية لأنها في المشتق فقد اشتق من العرض عرض بمعنى أظهر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

يقول الشيخ ابن عاشور: وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سِيقُوا إليها فيعلمون أنها المهيأة لهم، فشبه ذلك بالعرض تهكماً بهم، لأن العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة . [٢]

وفي قوله تعالى: [يَوْمَئِذٍ] إيجاز بالحذف أي يومَ إذْ جمعنا الخلائقَ كافة . [٣]

واللام في قوله : { لِلْكافِرِينَ } للاختصاص [٤] أي تخصيص العرض بهم، وإن كان غيرهم يراها [٥]، لأنها ما عرضت إلا من أجلهم خاصة ، ومن أجل أمثالهم ممن فسقوا عن أمر ربهم . [١]

---

(١) معنى تصريحية : أي مصرح فيها باللفظ الدال على المشبه به . علوم البلاغة ٢٧٠/١ ، جواهر البلاغة ٢٦٠/١

(٢) التحرير والتنوير ٤٢/١٦ ، المفردات ٥٦٠/١

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٤٧/٥ ، روح المعاني ٣٦٥/٨

(٤) قال السكاكي اللام للملك أو للاختصاص كقولك المال لزيد والجل للفرس، مفتاح العلوم ٩٨/١

(٥) قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين كما جاء في قوله تعالى: (وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) سورة مريم١٩من الآية ٧١ بمعنى: يراها ويمرُّ بها ، أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة

وقيل: اللام بمعنى على لأن العرض يتعدى بها ، والتقدير وعرضنا الكافرين على جهنم عرضاً ويكون في تخصيصه بالكافرين بشارة للمؤمنين . (٢)

والتنكير في قوله{عَرْضًا} لإفادة التهويل، أي: عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادَر قدرُه . (٣)

فعدم تقييد المفعول المطلق هنا بصفة ، الغرض منه التهويل والتعظيم حتى تذهب النفس في معرفة صورة هذا العرض كل مذهب فهو أبلغ في التخويف والترهيب .

وتأكيد الفعل بمصدره : في {وَعَرَضْنَا... عَرْضًا } للتأكيد على أنهم يرون ذلك رأي العين رؤية حقيقية، ولا يخفى عليهم من نتائج أعمالهم شيء من الخفاء، وللتعبير عن شدة حالهم .(٤)

تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به، حيث نجّاه من هذا العذاب، ويعلم فضل الإيمان عليه، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .
وأما الكافر فسيعرض على النار ويراها أولاً، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها، ولن يُفلِتْ منها. تفسير الشعراوي ٨٩٩٦/١٥ الناشر: مطابع أخبار اليوم

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٧/٥ ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي ٥٨١/٨ الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة الطبعة: الأولى

(٢) البحر المحيط في التفسير ٢٢٩/٧

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٧/٥ ، روح المعاني ٣٦٥/٨

(٤) الكشاف للزمخشري ٧٤٨/٢ ، زهرة التفاسير لأبي زهرة ٤٥٩٣/٩ دار النشر: دار الفكر العربي ، المحرر الوجيز ٥٤٤/٣

قوله تعالى : [ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا] (١)

لمَّا ذكر الله ﷻ في الآية السابقة أنَّ جهنم تعرض عرضاً ظاهراً للكافرين فيرون كل ما فيها من الأهوال ولا يجدون عنها مصرفاً، وصفهم في هذه الآية بما أوجب سجنهم فيها ، بأنهم هم مَنْ كانت أعينهم في غطاء وساتر عن آياته التي يشاهدها من له عقل رشيد، وقلب سليم فيذكر الله ﷻ بالتوحيد والتمجيد، وكانوا لا يستطيعون سمعاً لكلام الله وكلام رسوله ﷺ . (٢)

فصلت جملة [ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ] عما قبلها لأنها تفصيل لما أجملته الجملة الأولى وبيان لها، فبينهما كمال الاتصال . (٣)

وللتعبير بالفصل والوصل في القرآن الكريم منزلته البلاغية السامية حسب استدعاء الحال واقتضاء المقام ، والبلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بالفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام .يقول الجرجاني : اعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو

---

(١) سورة الكهف ٨١ الأية ١٠١

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٤٥/١٢ الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٢/ ٤٣٩ الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة - ١٤١٣ هـ

(٣) كمال الاتصال : هو اتحادُ الجملتين اتحاداً تاماً: وامتزاجاً معنوياً - بحيث تُنزَّل الثانية من الأولى منزلةَ نفسها ، بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة البدل من الجملة الأولى، أو بيانا لإبهام في الجملة الأولى، أو مؤكدة للجملة الأولى . الإيضاح ١٠٧/٣ ، جواهر البلاغة ١٨٤/١

ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، وممّا لا يتأتّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد .

وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: «معرفة الفصل من الوصل»، ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة . (١)

واسم الموصول {الَّذِينَ} يجوز أن يكون مجروراً بدلاً من قوله «للكافرين» أو بياناً أو نعتاً له، وأن يكون منصوباً بإضمار أذم، وأن يكون مرفوعاً خبر ابتداء مضمر. (٢)

وأتى النعت معرفاً بالموصولية : ذماً لهم واحتقاراً منهم، وللإشارة إلى أن مضمون الصلة هو سبب عرض جهنم لهم أي الذين عرفوا بذلك في الدنيا .

يقول أبو السعود : فجيء بهذا النعت لذمِّهم بما في حيزِ الصلةِ وللإشعار بعلّيته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم، فإن ذلك إنما هو لعدم استعمالِ مشاعرِهم فيما عَرَض لهُم في الدُّنيا من الآيات، وإعراضِهم عنها مع كونها أسباباً منجِّيةً عما ابتُلوا به في الآخرة . (٣)

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ١٤٨/١ ، الإيضاح ٩٧/٣

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري٨٦٢/٢ تحقيق : علي محمد البجاوي نشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الدر المصون ٥٥١/٧

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٧/٥

والأعين : إما أن يراد بها العين الباصرة ، ويكون المراد بالذِّكْر : الآيات الكونية المؤدية لأولي الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكره ﷻ بالتوحيد، أو قراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه .

وإما أن يكون المراد بالأعين: عين البصيرة القلبية، والمعنى: أنَّ قلوبهم كانت في غطاء عن أن يذكروا الله ﷻ على وجه يليق بشأنه .(١)

وفي التعبير بقوله: {غِطاءٍ} (٢) إشعار بأن الحائل والساتر الذي حجب أعينهم عن الإبصار، كان حائلاً شديداً، إذ الغطاء هو ما يغطي الشيء ويستره من جميع جوانبه. (٣)

وجعل الغطاء للأعين بدلاً من جعله للقلوب ، لأنه أبلغ في وصف الغفلة ، لأن الأول يستلزم الثاني من غير عكس ، فالعين سبيل هذا الإدراك وتوصيله إلى القلب .

قال الواحدي: وهذا أبلغ في وصف غفلتهم من أن لو قيل: قلوبهم في غطاء عن الذكر؛ لأن وصفهم بالعمى عن الأدلة يوجب غفلة قلوبهم، ووصفهم بعمى القلوب لا يوجب عمى أبصارهم . (٤)

وعبَّر بـ "في" ، ولم يعبر بـ "على" لأن "في" تفيد الظرفية فتدل على تَمَكُّن الغطاء من أعينهم بحيث كأنها محوية للغطاء . (٥)

---

(١) الكشاف ٧٤٩/٢ ، البحر المحيط ٢٢٩/٧ ، روح المعاني ٣٦٥/٨

(٢) الغطاء ما تغطيت به أو غطيت به، يقال: غطا الشيء، وغطا عليه إذا ستره . لسان العرب ١٣٠/١٥ مادة (غ ط ى)

(٣) التفسير الوسيط ٥٨١/٨

(٤) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ١٦٢،١٦١/١٤

(٥) التحرير والتنوير ٤٢/١٦

أيضاً فإنَّ "على" تحمل معنى العزة والارتفاع كما في قوله تعالى: [أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ] (١) ، و"في" تحمل معنى الذل والانحطاط ، وكأن المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء ، والكافر منغمسٌ في ظلام مرتبك فيه لا يرى ولا يعرف أين يتوجه . (٢)

<u>وفي قوله تعالى : [ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى] استعارة تمثيلية تصريحية:</u>

حيث شبه حال إعراضهم عن الآيات الكونية وعدم النظر فيها، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها وبالتالي عدم الإيمان ، بحال مَنْ ألقى غطاء على عينيه ، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب، بجامع عدم الانتفاع بدلالة البصر في كل، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه، على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية . (٣)

<u>ووردت الاستعارة التمثيلية أيضاً</u> : في قوله تعالى:[وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا] حيث شبه حال إعراضهم عن الآيات، وعدم قبول قول رسلهم بحال مَنْ أصيب بصمم ، ولم يستطع سماع القول الهادي المرشد،

---

(١) سورة البقرة ٢ الآية ٥

(٢) البلاغة (المعاني) المؤلف : مناهج جامعة المدينة العالمية ٣٥١/١ المرحلة: بكالوريوس الناشر: جامعة المدينة العالمية.

(٣) الكشاف ٧٤٩/٢ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٣/٩ ، صفوة التفاسير المؤلف: محمد علي الصابوني ١٩١/٢ الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج المؤلف : د / وهبة بن مصطفى الزحيلي ٣٤/١٦ الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ

بجامع عدم الانتفاع بدلالة السمع في كل ، ثم استعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه، على سبيل الاستعارة التمثيلية التصريحية . (١)

وفي هاتين الاستعارتين يقول أبو السعود: وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأولَ تصويرٌ لتعاميهم عن الآيات المشاهَدةِ بالأبصار. (٢)

وإن أريد بالأعين البصائر كان في قوله [أَعۡيُنُهُمۡ] استعارة أصلية(٣) حيث استعار الأعين الباصرة وأراد بها البصيرة لأنها عيون القلب .

وفي قوله تعالى [ذِكۡرِي] مجاز مرسل: (٤) علاقته المسببية حيث أطلق المسبب وأراد السبب ، فذكر الله ﷻ مسبب عن الآيات .

يقول الزمخشري : [عَن ذِكۡرِي] عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . (٥)

(١) زهرة التفاسير ٤٥٩٣/٩

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢٤٧/٥

(٣) الاستعارة الأصلية هي : ما يكون اللفظ المستعار فيها اسم جنس، وهو الذات الصالحة لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلاً نحو أسد، وقتل إذا استعير للشجاع والضرب الشديد . علوم البلاغة للمراغي ٢٧٤/١

(٤) المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقةٍ غير المشابهة مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الوضعي . بغية الإيضاح ٤٦٢/٣ ، جواهر البلاغة ٢٥٣،٢٥٢/١

(٥) الكشاف ٧٤٩/٢

وقال الألوسي: فالذكر مجاز عن الآيات المذكورة من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب وفيه أن مَنْ لم ينظر نظراً يؤدي به إلى ذكر التعظيم كأنه لا نظر له البتة وهذا فائدة التجوز. (١)

والمجاز في الكلام هو من أساليب التعبير غير المباشر، الذي يكون في معظم الأحيان أوقع في النُّفوس وأكثر تأثيراً من التعبير المباشر، كما أنه يحمل من المعاني الممتدة الواسعة، ومن الإبداع الفني ذي الجمال المعجب، ما لا يؤديه البيان الكلامي إذا استعمل على وجه الحقيقة في كثير من الأحيان، مع ما فيه من اختصار في العبارة وإيجاز، وإمتاع للأذهان، وإرضاء للنفوس ذوات الأذواق الرفيعة التي تتحسس مواطن الجمال البياني فتتأثر به تأثر إعجاب واستحسان. (٢)

<u>وفي نفي استطاعة السمع مبالغة</u> (٣) <u>في انتفاء السمع</u>: فقوله [وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا] معناه أنهم كانوا صماً، إلا أن الأصم قد يستطيع

(١) روح المعاني ٣٦٥/٨ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٢/٤ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٢٠/٨

(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة ٢٢٧/٢

(٣) المبالغة أن يُدَّعَى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا؛ لئلا يُظَن أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف، وتنحصر في: التبليغ، والإغراق، والغلوّ؛ لأن المدعى للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنا في نفسه أو لا، الثاني: الغلو، والأول إما أن يكون ممكنا في العادة أيضا أو لا، الأول: التبليغ، والثاني: الإغراق . بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ٦١٢/٤ ، جواهر البلاغة ٣١٣،٣١٢/١

السمع إذا صيح به، أمَّا هؤلاء فكأنما أصمتت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع (١). (٢)

وبَيَّن الألوسي بلاغة هذه الصورة بقوله: فالجملة الكريمة نفى لسماعهم على أتم وجه،

ولذا عدل عن: وكانوا صماً مع أنه أخصر، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدي السمع بالكلية وهو مبالغة في تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم، بعد تصوير تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار. (٣)

وحذف مفعول [سَمْعًا] لدلالة ما تقدم عليه من قوله [عَن ذِكْرِى] والتقدير: سمعاً لآياتي ، وهذا من أغراض حذف المفعول به ففيه إيجاز بالحذف. (٤)

---

(١) قال الشهاب : (أي جنس الأصم أو الأصم الغير المفرط الصمم ، وكلمة قد لا تنافيه ، وأصمتت بصيغة المجهول أي جعلت مصمتة لا تجويف لها . حاشية الشهاب (المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي) المؤلف: أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي ١٣٦/٦ دار النشر: دار صادر ـ بيروت

(٢) الكشاف ٧٤٩/٢ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٢٩٤/٣ تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

(٣) روح المعاني ٣٦٥/٨ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٦٢/٤ المحقق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ

(٤) التحرير والتنوير ٤٢/١٦ ، جواهر البلاغة ١٥٦/١ ، من أسرار البلاغة في القرآن ص ٦٣

وعن بلاغة هذا الحذف يقول الإمام عبد القاهر : وليس لنتائج حذف المفعول من الرّوعة والحسن نهاية ، فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة ، وإلى لطائف لا تحصى . (١)

وقد بلغت الآية الكريمة نهاية الإعجاز في وصفهم بالجملتين معاً : فقد عُلم أنه لا يمكن الاستغناء بالثانية عن الأولى .

وقد أشار إلى هذه النكتة البلاغية الشهاب في حاشيته حيث قال: لمَّا أفاد قوله: [وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا] أنهم كفاقدي حاسة السمع، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوهما مما يدرك بالنظر ذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً ، وهذا من البلاغة بمكان فتدبره . (٢)

قوله تعالى: [أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾] (٣)

لما بين من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول ﷺ أتبعه ببيان أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لا ينفعهم .

والمعنى : أفظن الذين كفروا بي، واتخذوا عبادي الذين هم في قبضتي وتحت سلطاني – كالملائكة وعيسى– معبودات من دوني، أظنوا

(١) دلائل الإعجاز ١١٠/١
(٢) حاشية الشهاب ١٣٦/٦ ، محاسن التأويل ٧٩/٧
(٣) سورة الكهف ١٨ الآية ١٠٢

أن ذلك يجديهم نفعاً، أو يرفع عنهم ما يحل بهم من النكال والوبال ، وأنه لا يغضبني ؟ كلا . (١)

و"حسب" (٢) في الآية بمعنى "ظن"، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود «أفظن الذين كفروا». (٣)

وجملة [أَن يَتَّخِذُواْ] سدت مسد مفعولي "حسب": أي أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء. (٤)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٥٠١/٢١ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ ، تفسير المراغي للمراغي ٢٣/١٦ الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

(٢) قال الراغب : الحِسْبَان: أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بغرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظنّ، لكن الظنّ أن يخطر النقيضين بباله فيغلّب أحدهما على الآخر. المفردات ٢٣٤/١

(٣) القراءة شاذة ونسبها أبو حيان وغيره لابن مسعود . البحر المحيط ٢٢٩/٧ ، الكشاف ٧٤٩/٢

(٤) قال أبو السعود : على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شيء لِما أنه إنما يكون من الجانبين وهم عليهم السلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرة لقولهم {سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ} سورة سبأ ٣٤ من الآية٤١ . وهذا الوجهُ أولى من الثاني ، لأن في الثاني تسليماً لنفس الاتخاذِ واعتداداً به في الجملة . إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥

وقيل: إنَّ {أَنْ} وما بعدها في تأويل مصدر مفعول أول لحسب والمفعول الثاني محذوف والتقدير: أفظنوا اتخاذهم نافعهم أو سبباً لرفع العذاب عنهم . (١)

وقرئ (أفحسْبُ) بسكون السين ورفع الباء، أي أفكافيهم وحسبهم ، فتكون "حسب" مبتدأ و"أن يتخذوا" خبر، والمعنى: أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كفروا أي كافيهم وحظُّهم ومطلوبُهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ؟ بل يجب أن يكونوا كلهم عبيداً وأولياء لي، لأن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا . (٢)

قال الألوسي: وفي هذه القراءة : دلالة على غاية الذم لهم، وذلك لأنه جعله غاية مرادهم، ومجموع عدتهم يوم الحساب وما يكتفون به عن سائر العقائد والفضائل التي لا بد منها للفائز في ذلك اليوم . (٣)

---

(١) المحرر الوجيز٣/٥٤٥ ، البحر المحيط ٢٢٩/٧، إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥

(٢) القراءة شاذة ونسبها ابن جني لعلي وابن عباس وابن يعمَر والحسن ومجاهد وغيرهم . المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني الموصلي ٣٤/٢ الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة للبناء الدمياطي ٣٧٣/١ المحقق: أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ ، الكشاف ٧٤٩/٢

(٣) روح المعاني ٣٦٧،٣٦٦/٨ ، المحتسب ٣٤/٢

وجملة [أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ] أسلوب إنشائي طلبي أتى في صورة الاستفهام [1] الذي خرج من معناه الحقيقي إلى الإنكار والتوبيخ ، توبيخاً لهم وإنكاراً لما وقع منهم .

قال أبو السعود : والهمزةُ للإنكار والتوبيخِ على معنى إنكارِ الواقعِ واستقباحِه كما في قولك أضربتَ أباك، لا إنكارُ الوقوعِ كما في قوله أأضرِبُ أبي . [2]

وفي قوله {أَفَحَسِبَ } إيجاز بحذف جملة، فالفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفَيْن معاً، والمعنى أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا.[3]

وللإيجاز منزلته البلاغية السامية ، فقد ذكر أبو هلال في الصناعتين أنه قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد . [4]

---

(١) الإنشاء في اللغة هو : الإبداع والابتداء ، وفي الاصطلاح هو كلامٌ لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته نحو اغفر ، وارحم ، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب ، ومعنى الطلبي : هو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، ويكون الإنشاء بأنواع من الكلام : مثل الأمر، والنهي، النداء ، التمني ، الدعاء ، والاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل . بغية الإيضاح ٢٤٩/٢ ، جواهر البلاغة ٧٨/١ ، البلاغة العربية ٢٢٣/١-٢٢٨

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، روح المعاني ٣٦٧،٣٦٦/٨ ، التحرير والتنوير ٤٣/١٥-٤٥

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، روح المعاني ٣٦٧،٣٦٦/٨

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري ١٧٣/١

ووضع الظاهر موضع المضمر [1] **فقال: [أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ] ولم يقل أفحسبوا؛ بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لهم لأن في ذلك زيادة تأكيد.** [2]

وفي الآية الكريمة حذف دل عليه السياق وتقديره : أفحسب الذين كفروا بي أن يتخذوا عبادي الصالحين آلهة يستنصرون بهم أو يعبدونهم من دوني، ثم لا أعذبهم- أي هؤلاء الكافرين بي- على هذا الاتخاذ الشديد الشناعة ، ويؤيده تذييل الآية بقوله : [إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا]. [3]

والحذف لون بليغ من ألوان البيان ، يعتمد القرآن فيه على ذكاء قارئه ، فيحذف من الجمل ما يستطيع القارئ أن يدركه ، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه ، سواء كان الغرض من الحذف التخفيف ، أو لأن هذه الجملة أو الجمل المحذوفة تفصيلات جزئية تدرك من السياق ، وفي تخطيها وصول إلى العناصر الأساسية للحدث . [4]

---

(١) إذا تقدم مرجع الضمير أو دلت عليه قرينة كان المقام للإضمار، إلا أنه قد يوضع المظهر في موضع المضمر لأغراض بلاغية كزيادة تمكنه في ذهن السامع أو كمال العناية بتمييزه ، إلى غير ذلك من الأغراض التي يتطلبها المقام . الإيضاح ٨٢/٢ ، من أسرار البلاغة في القرآن ص ١٠٧

(٢) التحرير والتنوير ٤٣/١٥-٤٥

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ١٦٣/١٤ ، التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ٧١٤/٨ الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة ، زهرة التفاسير ٤٥٩٤/٩ ، التفسير الوسيط ٥٨٢/٨،٥٨٣

(٤) من أسرار البلاغة في القرآن ص ٤٦-٤٨

وأتى بالفعل المضارع في: [يَتَّخِذُواْ] للدلالة على تجدد ذلك منهم وعدم إقلاعهم عنه .

وفصلت جملة [إِنَّآ أَعْتَدْنَا] عما قبلها لما بينهما من كمال الانقطاع [1] حيث اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظاً ومعنى ، فوجب الفصل بينهما ، وترك العطف .

وأعتدنا : بمعنى : أعددنا ويَسَّرنا .

والنزل موضع النزول ، والنزل أيضاً ما يقدم للضيف ويهيأ له وللقادم من الطعام . [2]

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله [إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ] فلم يقل: وأعتدنا لهم، وأتى بالاسم الظاهر "الكافرين" لذمِّهم ، وللإشارة إلى أنَّ سبب إعداد جهنم لهم هو كفرهم .

يقول أبو السعود: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ} أي هيأناها {للكافرين} المعهودين عدلَ عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعاراً بأن ذلك الاعتاد [3] بسبب

---

(١) كمال الانقطاع من أسباب الفصل بين الجمل وهو: أن تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءً ، لفظًا ومعنى بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى إيهام غير المقصود. الإيضاح ١٠٥/٣ ، البلاغة العربية ٥٨٩/١

(٢) المفردات ٥٤٥/١ ،٧٩٩ المحرر الوجيز٥٤٥/٣ ، البحر المحيط ٢٢٩/٧

(٣) عَتُدَ الشَّيْء عتاداً وعتادة تهَيَّأ وَحضر وجَسُمَ ، وأَعْتَد الشَّيْء هيأه وأعده وَالْعَتَادُ الشَّيْءُ الَّذِي تُعِدُّه لأَمْرٍ مَا وتُهَيِّئُه لَهُ، وَحَكَى يَعْقُوبُ أَن تَاءَ أَعْتَدْتُه بَدَلٌ مِنْ دَالِ أَعْدَدْتُه، يُقَالُ: أَعْتَدْتُ الشيءَ وأَعْدَدْتُه، . لسان العرب ٢٧٩/٣مادة (ع ت د)

كفرهم المتضمّن لحسبانهم الباطل . (١)

وعرَّف المسند إليه (٢) **بضمير الجلالة "إنا" لإدخال الروع في ضمائر المشركين .** (٣)

وعبَّر بالاعتداد تهكمًا بهم وتخطئة لهم، حيث كان اتخاذهم أولياء من قبيل العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذُّخْرِ جهنم عدة لهم.(٤)

فالجملة الكريمة مسوقة للتهكم بهم، والتقريع لهم، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها، بل هي عذاب مهين له ، وهذا كقوله : [فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] . (٥) . (٦)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥

(٢) المسند إليه ينبغي أن يكون معرفة، لأنه المحكوم عليه فلا بد أن يكون معلومًا ليكون الحكم عليه معتدًا به، ونكتة الإتيان به معرفة قصد إفاده المخاطب أتم فائدة ، وتعريفه على وجوه مختلفة فيكون بالإضمار، وبالعلمية، وبالموصولية، وبالإشارة، وبأل، وبالإضافة ، ويؤتى بالمسند إليه ضميرًا إذا كان الحديث في أحد المقامات الثلاثة :التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، وأريد الاختصار الشديد ، والارتباط المتين بين جمل الآية بعضها وبعض . جواهر البلاغة ١٠٩/١ المنهاج الواضح للبلاغة ٢٧/٢

(٣) التحرير والتنوير ٤٥/١٦

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ٣١٠/٣، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ

(٥) سورة آل عمران ٣ من الآية ٢١

(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٢/٤ ، التفسير الوسيط ٢٨٢/٨.

ووكدت جملة: [إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ] بحرف (إنَّ) لتقرير إنكار انتفاعهم بالأولياء ، أو لأنهم منكرون لعذاب جهنم أصلاً . (١)

وفي قوله: {نزلاً} استعارة تهكمية : حيث شبه ما أعد لهم من عذاب جهنم، بما أعد للضيف من القِرى تهكماً منهم ، لأن النزل يكون عادة مكاناً مريحاً يثوب إليه الذي نزل فيه، ولكنه جهنم وبئس المهاد.

يقول القاسمي : و(النزل) ما يقام للنزيل أي الضيف ، وفيه استعارة تهكمية ، إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين (٢) **، ضيافة لهم .** (٣)

وفي هذه الآية من فنون البديع رد العجز على الصدر (٤) **: فقوله : [أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ] رجوع إلى مطلع السورة في**

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤/١٦

(٢) الزقوم: شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة ، والغسلين: هو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا مفاتيح الغيب ٣٣٦/٢٦ ، ٦٣٢/٣٠

(٣) محاسن التأويل ٧٩/٧ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٤/٩ ، التحرير والتنوير ٤٣/١٥-٤٥

(٤) هذا اللون ذكره ابن المعتز في كتابه : البديع في البديع وقال : هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، وعرفه البلاغيون بأنه جعل أحد اللفظين المكررين، أو المجانسين في اللفظ دون المعنى، أو الملحقين بالمتجانسين، وهما اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق، في أول الفقرة، والآخر في آخرها. كقوله تعالى: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} سورة الأحزاب٣٣ من الآية ٣٧ . البديع في البديع المؤلف: عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي ١٤١/١ الناشر: دار الجيل الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، الإيضاح ١٨٥/٣ ، بغية الإيضاح ٦٤٩/٤

قوله تعالى: [وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا] (١) ، فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع . (٢)

قوله تعالى: [قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾] (٣)

يأمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يقول للكافرين: هل ننبئكم (٤)، أنا وكل عبد لله ، ليست عينه في غطاء عن الذكر، ولا في سمعه عجز عن الوعي ، إخباراً عظيماً بالأخسرين ؟. (٥)

---

(١) سورة الكهف ١٨ الآية ٤

(٢) محاسن التأويل ٧٩/٧

(٣) سورة الكهف ١٨ الآية ١٠٣

(٤) قال الطاهر : ونون المتكلم المشارك في قوله ننبئكم يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله ﷻ ، ويجوز أن تكون راجعة إلى الرسول ﷺ وإلى الله تعالى لأنه ينبئهم بما يوحى إليه من ربه، ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين . التحرير والتنوير ١٦ /٤٥

(٥) قال أبو حيان : المراد من الأخسرين (الرهبان أو أهل الكتاب أو غيرهم) وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا الحصر إذ الأخسرون أعمالاً هم كل من دان بدين غير الإسلام ، أو راءى بعمله ، أو أقام على بدعة تؤول به إلى الكفر والأخسر من أتعب نفسه فأدى تعبه به إلى النار . البحر المحيط ٢٣٠/٧

ولهذا قال ابن كثير : والآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود . تفسير القرآن العظيم ٢٠٢/٥

إنهم الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ثواباً وفضلاً ، فنالوا به هلاكاً وبواراً ، كالمشترى سلعة يرجو بها ربحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكس [١] ، في الذي رجا فضله.

وذلك لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له، وأنهم يحسنون صنعاً، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين، وفى ضلال مبين، وأن سعيهم الذي سعوه في الدنيا ذهب هباءً، فلم يُجْدِهم نقيراً ولا قطميراً. [٢]

<u>وافتتاح الجملة بالأمر</u>[٣] <u>بالقول</u> : للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين لأن مثل هذا الافتتاح يشعر بأنه في غرض مهم . [٤]

---

(١) وَكَسَ الشَّيْء نقص ، ووُكِسَ فلانٌ فِي تِجَارَتِهِ وأُوكِسَ أَيضاً، عَلَى مَا لَمْ يسمِّ فَاعِلَهُ فِيهِمَا، أَي خَسِرَ. لسان العرب ٢٥٨/٦ مادة (و ك س) ، المعجم الوسيط ١٠٥٤/٢

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ١٢٥/١٨ ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٤٧/١٢ ، تفسير المراغي ٢٣/١٦

(٣) الأمر من أنواع الإنشاء "الطلبي": وهو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء وله صيغ أربع: فعل الأمر ، والمضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعله ، وهذه الصيغ موضوعة لطلب الفعل استعلاء، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة ، وقد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام . الإيضاح ٨١،٨٠/٣ ، بغية الإيضاح ٢٦٩/٢ ، علوم البلاغة للمراغي ٧٥/١

(٤) التحرير والتنوير ١٦ /٤٥

والنبأ هو : الخبر ذو الفائدة العظيمة، وعدل القرآن عن لفظ الخبر، لأن النبأ أبلغ وأعظم منه، ولا يقال إلا فيما فيه فائدة هامة، وهي هنا التنبيه على تحقيقه وكونه من قِبَلِ الله ﷻ (١)

والاستفهام في قوله [هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ] خرج من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو التهكم ، كأنه يعرض عليهم الإخبار أو يستأذنهم فيه ، فهو خبر جاء في صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .

يقول الشيخ ابن عاشور: وكذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم استفهاماً مستعملاً في العرض لأنه بمعنى: أتحبون أن ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، وهو عرض تهكم لأنه منبئهم بذلك دون توقف على رضاهم . (٢)

وقال الألوسي : وإذا حمل الاستفهام على الاستئذان كان فيه من التهكم ما فيه . (٣)

والأخسرون: جمع أخسر، وهو أفعل تفضيل من الخسران ، وأتى بصيغة التفضيل لأنه أراد الذين بلغوا من الخسران أقصاه، فلا خسارة فوق

---

(١) قال الراغب : النَّبَأُ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب، كالتّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، ولتضمُّن النبأ معنى الخبر يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمّنه معنى العلم قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمته كذا . المفردات في غريب القرآن ٧٨٨/١، ٧٨٩

(٢) التحرير والتنوير ١٦ /٤٥، إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، التفسير الوسيط ٥٨٣/٥٨٤/٨

(٣) روح المعاني ٣٦٧/٣٦٨/٨

خسارتهم، أو أنهم بالنسبة للمؤمنين أكثر خسارة لأن المؤمنين إن خسروا في الدنيا متاعها ، فأولئك خسروا ما هو أعظم وهو متاع الآخرة ، والمراد به هنا خسران أعمالهم وضياعها بسبب إصرارهم على كفرهم . (١)

وقوله تعالى : [أَعْمَالًا] : نصب على التمييز .

وجمع الأعمال، ولم يقل عملاً : مع أن الأصل في التمييز الإفراد ، والمصدر شامل للقليل والكثير(٢) **، للدلالة على اختلافها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .**

يقول أبو السعود: {بالأخسرين أعمالاً} نصبٌ على التمييز ، والجمعُ للإيذان بتنوعها ، وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدرَ عنهُم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسها وفي حسبانهم أيضاً حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها ، غِبَّ (٣) **بيان حالِهم باعتبار أعمالِهم السيئةِ في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم .** (٤)

---

(١) زهرة التفاسير ٤٥٩٦/٩، التفسير الوسيط ٥٨٣/٥٨٤/٨

(٢) التمييز: اسم نكرة، بمعنى من ، مبين لإبهام اسم أو نسبة . أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٢٩٥/٢ تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

(٣) غَبَّ: بِمَعْنَى بَعُدَ وغِبُّ كلِّ شيءٍ: عاقبتُه. وجئتُه غِبَّ الأَمر أَي بَعْدَه . لسان العرب ٦٣٥/١ مادة (غ ب ب)

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥،٢٤٩ البحر المحيط ٢٣٠/٧ ، الدر المصون ٥٥٣/٧

وقال البقاعي : ولما كانت أعمالهم مختلفة، فمنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يكفر بغير ذلك، جمع المميز فقال: {أعمالاً }.(١)

واسم الموصول في قوله [ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ] : يجوز فيه الجر نعتاً وبدلاً وبياناً، والنصب على الذم، والرفع على أنَّه خبر مبتدأ مضمر.(٢)

وفصلت جملة: [ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ] عن سابقتها لما بينهما من اتحاد تام إذ هي بدل منها وهو ما يعرف عند البلاغيين بـ كمال الاتصال .

أو هي استئناف بياني المسمى بشبه كمال الاتصال (٣) **، لأنها بمنزلة جواب لسؤال مقدر يفهم من الآية السابقة فكأنه قيل: نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالاً ؟ فكان الجواب هم: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ} .** (٤)

يقول الزمخشري : فإن قلت: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ} في أي محل هو؟ قلت: الأوجه أن يكون في محل الرفع ، على تقدير: هم الذين ضل

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٤٧/١٢

(٢) إعراب القرآن للنَّحَّاس ٣٠٩/٢ وضع حواشيه وعلق عليه : عبد المنعم خليل إبراهيم طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة : الأولى، ١٤٢١ هـ ، إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ٣٥/٦ الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص – سورية ، دار اليمامة ، و دار ابن كثير - دمشق - بيروت الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ ، الدر المصون ٥٥٣/٧

(٣) وهو كون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، لوقوعها جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتُفصلُ عنها، كما يفصل الجواب عن السؤال . بغية الإيضاح ٢٩٤/٢ ، جواهر البلاغة ١٨٤/١

(٤) التفسير الوسيط ٥٨٣/٥٨٤/٨

سعيهم ، لأنه جواب عن السؤال ، ويجوز أن يكون نصباً على الذم، أو جرّاً على البدل . (١)

وقوله [ضَلَّ سَعْيُهُمْ] بمعنى : ضاع وبطل بالكلية عند الله ﷻ لكفرهم وعجبهم . (٢)

والسعي هو العمل : وإنما قال: {سَعْيُهُمْ} ولم يقل "عملهم "، للإشارة إلى أن كل جهد يبذلونه يكون جهداً في ضلال فلا يكون فيه خيرٌ أبداً، ومع هذا لا يعتقد أنه ضلال بل يحسبه رشاداً، ولذا قال: { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يحْسِنُونَ صُنْعًا}.

أي أنهم بضلال الفعل وضلال الفكر، يفعلون الشر، ويظنون أنهم يفعلون الخير فانقلب تفكيرهم فحسبوا الشر خيراً، وذلك أشد الضلال إذ يطغى الضلال على تفكيرهم، فينشئه بالباطل ويحسب الباطل حقاً، والحق باطلاً ، وهذا أشد الضلال . (٣)

وبهذا يظهر أن للكلمة القرآنية من حيث موقعها في النظم ، وارتباطها فيه بغيرها دلالة في السياق وموقع في الإعجاز البياني ، ومزية لا توجد في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان.

---

(١) الكشاف ٧٩٤/٢، ٧٥٠ ،أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٩٤/٣ ، تفسير النسفي ٣٢٢/٢ ، إرشاد العقل السليم٢٤٩/٥

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤٩/٥ روح المعاني ٣٦٨/٨، أنوار التنزيل ٢٩٤/٣

(٣) زهرة التفاسير ٤٥٩٦/٩ ، التفسير الوسيط ٥٨٣/٥٨٤/٨

فهي أولاً: تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه ، ولا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التي تعاني من العجز .

وهي ثانياً: تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد، فمهما استبدلت

بها غيرها ، لم يسدّ مسدّها ولم يغن غناءها ، ولم يؤد الصورة التي تؤديها . (١)

<u>وإسناد الضلال إلى السعي</u>: في قوله [ضَلَّ سَعْيُهُمْ] <u>مجاز عقلي</u> (٢)

علاقته السببية ، والمعنى:

---

(١) من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل المؤلف: محّمد سَعيد رَمضان البوطي ١٣٩/١ الناشر: موسسة الرسالة - بيروت عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

(٢) المجاز العقلي هو: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له، وما في معنى الفعل هو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة، ومعنى كونه غير ما هو له أنه ليس من حقه أن يسند إليه؛ لأنه ليس يوصف له، ومعنى الملابسة العلاقة.
والفرق بينه وبين غيره من المجاز المرسل أو الاستعارة هو أن الكلمة فيه متروكة على ظاهرها ومعناها مقصود في نفسه، وإنما التجوز في حكم يجري عليها، كقولهم: نام ليلي، وقوله تعالى: {فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ}سورة البقرة ٢ من الآية ١٦ ، ففي هذا مجاز لكنه ليس في ذوات الألفاظ، فإن الليل والتجارة مستعملان في حقيقتهما، بل في أن جعلتهما فاعلين لنام وربح
أما غيره من المجاز فكانت تذكر فيه الكلمة ولا يراد معناها، ولكن ما هو ردف للمعنى أو شبيه به، فالتجوز كان يكون في اللفظ نفسه. علوم البلاغة للمراغي ٢٩١/١ ، جواهر البلاغة للهاشمي ٢٥٥/١

الذين ضلوا في سعيهم ، فالسعي سبب في الضلال . (١)

وقد أدى المجاز العقلي هنا دوره في بلاغة السياق ، وإيجازه وروعته في الدلالة على فساد أعمالهم وبطلانها .

يقول الجرجاني : والمجاز العقلي كنز من كنوز البلاغة، ومادّة الشاعر المفلق(٢)**، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان .** (٣)

وبين قوله تعالى : [يَحْسَبُونَ] ، و[يُحْسِنُونَ] : جناس (٤) **يسمى بجناس التصحيف** (٥) **، حيث اختلفت الكلمتان في المعنى** (٦) **، وتشابهت في اللفظ ، والنقط هو الفرق بينهما .**

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥/١٦،٤٦

(٢) قال ابن منظور: شَاعِرٌ مُفْلِقٌ: مُجِيدٌ، مِنْهُ، يَجِيءُ بِالْعَجَائِبِ فِي شِعْرِهِ، وأَفْلَقَ فِي الأَمر إِذا كَانَ حَاذِقًا بِهِ. لسان العرب ٣١١/١٠ مادة (ف ل ق)، القاموس المحيط ٩١٩/١ ، المعجم الوسيط ٧٠١/٢

(٣) دلائل الإعجاز ١٩٣/١

(٤) الجناس في اللغة: المشاكلة، والاتحاد في الجنس، يقال لغة: جانسه، إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جنسه، وجنس الشيء أصله الذي اشتق منه، وتفرع عنه، واتحد معه في صفاته العظمى التي تقوم ذاته ، والجناس في الاصطلاح: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى . البلاغة العربية ٤٨٥/٢

(٥) الجناس المصحف ويسمى "جناس الخط" وهو: أن يتشابه اللفظان في الكتابة مع اختلاف في نقط الحروف، مثل: "يسقي" و"يشفي". البلاغة العربية لحَبَنَّكَة ٤٨٥/٢ ، بغية الإيضاح ٦٤٣/٤

(٦) فالحسبان بمعنى الظن ، والإحسانُ الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتي أي يحسبَون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائقِ وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها . إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، روح المعاني ٣٦٧/٣٦٨/٨

قال السمين : قوله: { يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ } يسمى في البديع «تجنيس التصحيف» وتجنيس الخط ، وهذا من أحسنه . (١)

والجناس فن بديع في اختيار الألفاظ التي توهم في البدء التكرير، لكنها تفاجئ بالتأسيس واختلاف المعنى ، ويشترط فيه أن لا يكون متكلفاً، ولا مستكرهاً استكراهاً، وأن يكون مستعذباً عند ذوي الحس الأدبي المرهف، وقد نفر من تصنعه وتكلفه كبار الأدباء والنقاد . (٢)

يقول الجرجاني : أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانُس اللفظتين إلا إذا كان وقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مَرْمَى الجامع بينهما مَرْمَىً بعيداً ، فبهذه السريرة صار التجنيس–

وخصوصاً المستوفَى منه المُتَّفق في الصورة – من حُلَي الشّعر ، ومذكوراً في أقسام البديع .(٣)

قوله تعالى :[أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾] (٤)

بعد ما أخبر الله ﷻ في الآية السابقة عن الأخسرين أعمالاً ، بَيَّن هنا سبب خسرانهم ، وهو أنهم جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه

(١) البحر المحيط ٢٣٠/٧ ، الدر المصون ٥٥٣/٧
(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ٤٨٥/٢
(٣) أسرار البلاغة المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار ٨/١ قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة
(٤) سورة الكهف ١٨ الآيتان ١٠٥،١٠٦

التكوينية والتنزيلية الدالة على توحيده، وكفروا وكذبوا بالبعث والحساب ولقاء الله وما بعده من أمور الآخرة، فحبطت وبطلت أعمالهم التي عملوها مما يظنونه حسناً، فلا يقام وزن لأعمالهم ، ولا يكون لهم عند الله ﷻ قدر، ولا يعبأ بهم، ولا ثواب على تلك الأعمال لأنها خالية من الخير، وحينئذ يكون جزاؤهم العادل على كفرهم ومعاصيهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ﷻ وسخريتهم من رسله . (١)

جملة [أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ] مبتدأ وخبر ، وجملة [كَفَرُواْ] صلة وهو كلام مستأنف لزيادة التعريف بهؤلاء الأخسرين أعمالاً، ولبيان سوء مصيرهم، ولذلك فصلت {أولئك} عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، وكأنَّ سائلاً سأل وقال: وما سبب خسرانهم؟

قال أبو السعود :{أولئك} كلامٌ مستأنفٌ من الله ﷻ مسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم . (٢)

وعرف المسند إليه باسم الإشارة (٣) **: لتمييزهم أكمل تمييز؛ لئلا يلتبسوا بغيرهم ، وللتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.**(١)

---

(١) التفسير المنير ٣٦/١٦ ، تفسير المراغي ٢٤/١٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، روح المعاني ٣٦٩/٨ ، إعراب القرآن وبيانه ٣٥/٦

(٣) يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة : إذا تعين طريقاً لإحضار المشار إليه في ذهن السَّامع، بأن يكون حاضراً محسوساً، ولا يَعرفُ المتكلم والسَّامع اسمه الخاص، ولا مُعيّناً آخر، كقولك أتبيع لي هذا - مُشيراً إلى شيء لا تعرف له اسما - ولا وصفاً.

وعبَّر بلفظ الرب في قوله [كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ] للدلالة على زيادة قبحهم فيما كفروا به .

يقول أبو السعود : والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ لزيادة تقبيحِ حالِهم في الكفر المذكور . (٢)

والقارئ لكتاب الله العزيز يجد أنّ النظم القرآني فيه من ترابط المعاني ، وسمو الأفكار ، ومناسبة العبارات ما يجعل كل لفظة قد وضعت في مكانها الذي هو أحق بها من غيرها وهي أحق به ، وقد قيل عن دقة ألفاظه الكثير .

يقول السيوطي : "وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد" (٣)

فهنا اختيرت كلمة (رب) مضافة إلى ضميرهم، وذلك لأن الرب يعني المالك لكل شيء ، والمستحق والصاحب له والمصلح والقائم على الشيء . (٤)

أمّا إذا لم يتعين طريقاً لذلك، فيكون لأغراض أخرى فإما لتمييزه أكمل تمييز لصحة إحضاره في ذهن السامع أو للقصد إلى أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس بواسطة الإشارة وإما لبيان حاله في القرب أو البعد أو التوسط . بغية الإيضاح ٨٥/١، جواهر البلاغة ١١٢/١

(١) التحرير والتنوير ٤٩،٤٧/١٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٥ ، روح المعاني ٣٦٩/٨

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٠/٤ تحقيق : محمد أبو الفضل الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

(٤) لسان العرب ٣٩٩/١ مادة (ر ب ب)

والله ﷻ له جميع الفضل على جميع الناس فهو الذي ربانا ، وأنعم علينا وأحسن إلينا ، وهو فوق هذا مالكنا وسلطان أمرنا ، فيجب طاعته والوقوف بين يديه ، والخوف من عقابه وغضبه ، فهو القادر قدرة المالك على المملوك ، والمُربِّي على المُربَّى ، ثم كيف يكون التجاسر على الكفر به ، أو عصيانه ومخالفته وارتكاب ما يغضبه ، بعد خلقه لنا وإنعامه علينا .

والتعبير بالحبوط [1] في قوله [فَحَبِطَتْ] في أعلى درجات البلاغة : لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال القبيحة التي ظنوها حسنة، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم. [2]

يقول الصابوني : كثيراً ما يرد في القرآن لفظ «حبط» ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال، فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار. [3]

---

(١) قال ابن منظور : حَبِطَ حبْطاً وحُبوطاً: عَمِلَ عَملًا ثُمَّ أَفْسَدَه ، وبَطَلَ ثَوَابُهُ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ حَبِطَت الدابةُ حبَطاً، بِالتَّحْرِيكِ، إِذا أَصابت مَرْعًى طيِّباً فأَفرطت فِي الأَكل حَتَّى تَنْتَفِخَ فَتَمُوتَ. لسان العرب ٢٧٢/٧ مادة (ح ب ط)

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٥٨٥/٨

(٣) صفوة التفاسير ١٩١/٢، في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب ٢٢٩٥/٤ الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

ومعنى قوله تعالى [فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا] أننا نزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لحبوطها . (١)

وفي قوله ﷻ : [فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا] استعارة مكنية حيث شبههم في عدم الاعتداد بهم بالمحقرات، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو عدم وزنه ؛ لأن الناس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها ، والشيء التافه لا يوزن . (٢)

وجملة: [فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا] متفرعة (٣) **عما قبلها فعدم إقامة الوزن مفرعاً على حبوط الأعمال ، لأنهم بحبط أعمالهم صاروا محقرين لا شيء لهم من الصالحات .**

---

(١) الكشاف ٧٤٩/٢، ٧٥٠ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل٢٩٥/٣
(٢) التحرير والتنوير ٤٧/١٦، ٤٩
(٣) التفريع : من البديع ، هو كما قال العلوي: تفعيل من قولك فرّعت هذا إذا قررته على أصله، ومنه فروع الشجرة، لأنها ثابتة على أصولها، وكل ما كان مبنياً على غيره فهو فرع له، وأما مفهومه فى مصطلح علماء البلاغة فهو عبارة عن إتيانك بقاعدة تكون أصلاً ومقدمة لما تريده من المدح أو الذم ثم تأتى بعد ذلك بتفصيل المديح وتعيّنه بعد إجمالك له أولاً ، فالكلام الأول يؤتى به على جهة المقدمة، وبالآخر على جهة الإكمال والتتميم والتفريع لما أصلته من قبل .
ثم يكون على وجهين : الوجه الأول منهما أن يصدر الكلام الأول بحرف النفى وهو «ما» وتجعله أصلا لما تريد ذكره من بعده، ثم تأتى بعد ذلك بأفعل التفضيل .
والوجه الثانى ما يكون على خلاف هذه الصفة، وهو أن يأتى المتكلم بصفة يقرب إليها ما هو أبلغ منها فى معناها فيذكرها ليفرع عليها

يقول أبو السعود : {فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ} أي لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمالِ {يَوْمَ القيامة وَزْناً} أي فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً لأن مدارَه الأعمالُ الصالحة وقد حبِطت بالمرة .

وحيث كان هذا الازدراءُ من عواقب حبوطِ الأعمال عُطف عليه بطريق التفريعِ وأما ما هو من أجزية الكفرِ فسيجئ بعد ذلك ، أولا نضع لأجل وزنِ أعمالِهم ميزاناً . (١)

وقوله [ذَلِكَ] إشارة إلى عقابهم السابق المتمثل في حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم .

والتعبير باسم الإشارة : للدلالة على أنهم صاروا إلى العذاب فعلاً، وأنه ليس مجرد تهديد لهم .

يقول البقاعي : ولما كان هذا السياق في الدلالة على أن لهم جهنم أوضح من الشمس قال: {ذلك} أي الأمر العظيم الذي بيناه من وعيدهم . (٢)

غيرها، ومنه قوله تعالى {فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السمآء بما كانوا يفسقون} سورة البقرة ٢ الآية ٥٩ ، أي: فتفرع على فسقهم عن طاعة الله بتبديل القول الذي قيل لهم معاقبتهم بإنزال الرجز (العذاب) من السماء عليهم . الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي ٧٣،٧٢/٣ ، البلاغة العربية لعبد الرحمن حَبَنَّكَة ٤٢٦/٢

(١) إرشاد العقل السليم ٢٥٠/٥ ، روح المعاني ٣٦٩/٨

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٤٩/١٢

وقوله [ذَلِكَ] إمَّا خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: أمرهم وشأنهم ذلك الذي سبق، ويكون قوله: [جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ] جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب .

وإمَّا أن يكون {ذلِكَ} مبتدأ و{جَزاؤُهُمْ} بدل منه بدل اشتمال أو بدل كل من كل إن كانت الإشارة إلى الجزاء الذي في الذهن و{جَهَنَّمُ} خبره.

أو أن يكون {ذلِكَ} مبتدأ و{جَزاؤُهُمْ} خبره و{جَهَنَّمُ} عطف بيان للخبر والإشارة إلى جهنم الحاضرة في الذهن . (١)

وفصلت جملة : [جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ] عما قبلها لأنها بيان وتفسير للجزاء فبينهما كمال الاتصال . (٢)

أو لما بينهما من شبه كمال الاتصال حيث إنها مستأنفة استئنافاً بيانياً تضمنت جواباً لسؤال أثارته الجملة السابقة ، فكأن سائلاً سأل وقال ما هو جزاؤهم؟ فأجيب بقوله: [جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ .....] .

قال الخطيب : وفى قوله تعالى: {ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ } الإشارة إلى الجزاء الذي يجازى به هؤلاء الكافرون.. فاسم الإشارة مبتدأ، وجزاؤهم

---

(١) قال الدرويش: وهذه الأوجه متساوية الرجحان . إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين للدرويش ٣٦/٦، التبيان في إعراب القرآن ٨٦٣/٢ ، البحر المحيط ٢٣١/٧، روح المعاني ٣٦٩/٨

(٢) الكشاف ٧٤٩/٢ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٠/٥

خبر، وجهنّم بيان لهذا الجزاء، وكأنه جواب عن سؤال هو: ما جزاؤهم هذا؟ فكان الجواب: جهنم بما كفروا " [1]

وأتى بلفظ [هُزُوًا] مصدراً لأنه أشد مبالغة فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفرِ بالآيات والرسل بل ارتكبوا أعظم من ذلك حيث استهزؤا بهما .

قال الشيخ ابن عاشور : والهزُؤُ- بضمتين- مصدر بمعنى المفعول ، وهو أشد مبالغة من الوصف باسم المفعول، أي كانوا كثيري الهزؤ بهم . [2]

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧١٧/٨ ، البحر المديد ٣١٢/٣ ، الجدول في إعراب القرآن الكريم المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي ٢٦٢/١٦ الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت الطبعة: الرابعة ١٤١٨ هـ

(٢) التحرير والتنوير ٤٩،٤٧/١٦ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٠/٥

المبحث الثاني

الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :

جزاء المؤمنين وبيان سعة علم الله ﷻ ووحدانيته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾][1]

جاءت هذه الآيات على سنة القرآن الكريم من أنه إذا ذكر الوعيد قرنه بالوعد ، وإذا ذكر الترهيب أتبعه بالترغيب ، فلما فرغ من الحديث عن الكفرة والأخسرين أعمالاً وما أعده لهم ، عقَّب بذكر ما أعده للمؤمنين، ليظهر التباين بين الفريقين .

ثم ختمت السورة ببيان سعة علم الله ﷻ واتساع معلوماته وأنها غير متناهية، وبالإعلام ببشرية النبي ﷺ ومماثلته لبقية الناس في ذلك، وأن علمه مستمد من الوحي الإلهي، والتنبيه على الوحدانية ، والحض على ما فيه النجاة في الآخرة . [2]

---

(١) سورة الكهف ١٨ الآيات ١٠٧-١١٠

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٤٦/٣ ، التفسير المنير ٤١/١٦ ، تفسير المراغي ٢٥/١٦

قوله تعالى: [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾]

في هاتين الآيتين، عرض للصورة الكريمة، التي يكون عليها المؤمنون يوم القيامة ، وللجزاء الكريم الذي يلقونه يوم الجزاء، فعلى حين يَصْلَى الكافرون العذاب الأليم، ينعم المؤمنون بنعيم الجنّة ورضوان الله ﷻ، وفي هذا ما يزيد من حسرة الكافرين، ويضاعف من عذابهم، بالقدر الذي يزيد من نعيم المؤمنين، ويضاعف من سرورهم ورضوانهم.(١)

والقرآن الكريم كثيرًا ما يشفع الوعد بالوعيد، والبشارة بالنذارة لما لذلك من أثر في تقويم النفوس وسياستها بالترغيب والترهيب، ومقام الوعد ومثله مقام الوعيد من المقامات التي تحتاج إلى توثيق القول وتأكيده؛ ليتقرر في النفوس ويتمكن منها فضل تمكن،فيزداد أنسها به وثقتها فيه.

فلذلك جاءت جملة [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ] مؤكدة بـ "إنَّ " لتحقيق الوعد، وتأكيد مضمون الكلام وإفادة الاهتمام به ، وتوجيه أذهان السامعين إلى أن ما سيلقى بعد "إن " من كلام خبر مهم .

يقول الشيخ ابن عاشور : وتأكيد الجملة للاهتمام بها لأنها جاءت في مقابلة جملة { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا }، وهي مؤكدة كي لا يظن ظان أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده

مع ما في التأكيدين من تقوية الإنذار وتقوية البشارة . (٢)

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧١٧/٨

(٢) التحرير والتنوير ٤٩/١٦-٥١

ويقول أبو السعود : {إن الذين آمنوا} بيانٌ بطريق الوعدِ لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرةُ إثرَ بيان مآلهم بطريق الوعيد، أي آمنوا بآيات ربِّهم ولقائه . (١)

وعرف المسند إليه بالموصولية للإشارة إلى نوع بناء الخبر(٢) **المحكوم به على المسند إليه ففي مضمون الصلة الذي هو "الإيمان والعمل الصالح" ما يشير إلى أن الخبر المبني على الموصول وصلته من جنس الثواب والإكرام .** (٣)

وأتى بالفعل الماضي [كَانَتْ] ليدل على تحقق وقوع الفعل ، حتى كأنه قد وقع ، وفيه دلالة على أن استحقاقهم الجنات أمر مستقر من قبل مهيأ لهم .

يقول الألوسي : ما وعدوا به لتحققه نزِّل منزلة الماضي فجيء بكان إشارة إلى ذلك . (٤)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٤٩/٥ ، روح المعاني ٣٩٦/٨-٣٧١

(٢) من دواعي تعريف المسند إليه بالموصولية : قصد الإيماء إلى وجه بناء الخبر؛ أي: الإشارة إلى نوع الخبر المراد إسناده إلى المسند إليه المعبر عنه باسم الموصول، من حيث كونه مدحًا أو ذمًّا أو نجاحًا أو إخفاقًا أو ثوابًا أو عقابًا، فإن المتكلم في بعض المقامات قد يقصد إشعارَ السامع بنوع الخبر قبل النطق به فيقتضيه هذا القصد أن يعرف المسند إليه بالموصولية؛ ليتحقق له الإيماء إلى نوع الخبر؛ نظرًا لما يكون في الصلة من مناسبة للخبر، تشعر بنوعه وطريق إسناده إلى الموصول قبل النطق به . البلاغة (المعاني) المؤلف : مناهج جامعة المدينة العالمية ٢٠٤/١

(٣) المنهاج الواضح للبلاغة ٣٥/٢ ، البلاغة العربية ٤٣٣/١

(٤) روح المعاني ٣٦٩/٨-٣٧١ ، إرشاد العقل السليم ٢٤٩/٥

وفي الإتيان بلام الاستحقاق[1] في [لَهُمْ] إشارة إلى أن أهليتهم واستحقاقهم للجنة بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وفي هذا مزيد تشريف وإكرام لهم .

يقول الشيخ ابن عاشور : وجيء بلام الاستحقاق تكريماً لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم ، كما قال تعالى: [وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] . [2] . [3]

وعبَّر في جزاء المؤمنين بقوله [كَانَتْ لَهُمْ] ولم يقل (أعتدنا لهم) كما قيل في حساب الكافرين: لبيان أن الجنة ما زالت تُجهز وتُعد لهم، وللتأكيد على أنهم داخلوها ولن يفوتهم نعيمها.

يقول الألوسي : ولم يقل أعتدنا لهم كما قيل فيما مر للإشارة إلى أن أمر الجنات لا يكاد يتم بل لا يزال ما فيها يزداد، فإن اعتاد الشيء وتهيئته يقتضي تمامية أمره وكماله، وقد جاء في الآثار "أنه يغرس للمؤمن بكل تسبيحة يسبحها شجرة في الجنة ".

وقيل: التعبير بما ذكر أظهر في تحقق الأمر من التعبير بالاعتاد ألا ترى أنه قد تهيأ دار لشخص ولا يسكنها ولا يخلو عن لطف فافهم. [4]

---

(١) قال العلوي : اعلم أن وضع الحرف مطلقا هو دلالته على معنى في غيره ولا يستقل بنفسه في الدلالة، فأما وضع حروف الجر فإنما هو لاتصال معاني الأفعال بالأسماء ، ويختلف ذلك الاتصال باختلاف معانيها فالباء، للإلصاق، وللوعاء ولبيان الجنس ، واللام فيها دلالة على الملك والأهلية للاستحقاق . الطراز لأسرار البلاغة ٢/٣٠،٣١

(٢) سورة الزخرف ٤٣ الآية ٧٢

(٣) التحرير والتنوير ١٦/٤٩-٥١

(٤) روح المعاني ٨/٣٦٩-٣٧١

وجمع الجنات في قوله [جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ] إيماءً إلى سعة نعيمهم ، وأنها جنان كثيرة ويدل عليه قوله ﷺ: «يا أم حارثة، إنها جنان كثيرة، وإن حارثة في الفردوس الأعلى» (١) . (٢)

وتعددت أقوال المفسرين في المراد بالفردوس فقيل هو : الأوْدِيةُ التي تنبت ضروباً من النبت ، وقيل : الفردوس البستان .

قال الزجاج : وحقيقته أنه البُستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين لأنه عند أهل كل لغة كذلك .

وقال الطبري : والصواب من القول في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عن عبادة بن الصامت ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: " الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة عام، والفردوس أعلاها درجة، ومنها الأنهار الأربعة، والفردوس من فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس" (٣). (٤)

---

(١) أخرجه البخاري كِتَابُ الرِّقَاقِ باب صفة الجنة والنار ١١٤/٨ حديث رقم ٦٥٥٠ صحيح البخاري تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

(٢) التحرير والتنوير ٤٩/١٦-٥١

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين في سبيل الله . صحيح البخاري ١٦/٤ رقم ٢٧٩٠

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٥/٣ تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي الناشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، جامع البيان في تأويل القرآن ١٣١/١٨ ، النكت والعيون للماوردي ٣٤٩/٣ تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

وفي قوله [نُزُلًا] إيجاز بحذف المضاف[1] والتقدير: كانت لهم ثمارُ أو ثمرُ جناتِ الفردوس مقدمة لهم عند ورودهم ، أو أن الكلام جاء على المبالغة بجعل الجنة نفسها نزلاً مبالغة في إكرامهم ، وهذا على أن المراد بالنزل ما يُجَهَّز ويُعَدُّ للضيف .

وإن أريد بالنزل مكان النزول فالمعنى : كانت لهم جنات الفردوس مستقراً ومنزلاً .

يقول أبو السعود : فإن جعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمارُ جناتِ الفردوس نزلاً، أو جُعلت نفسُ الجنّات نزلاً مبالغةً في الإكرام ، وإن جُعل بمعنى المَنْزِل فالمعنى ظاهر.[2]

واستدل أبوعلي الفارسي للوجه الأول فقال: ويدلّ على الوجه الأول : قوله تعالى:

[كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا][3] .[4]

---

(١) يقول ابن الشجري : إن حذف المضاف فى كلام العرب وأشعارها، وفى الكتاب العزيز أكثر من أن يحصى، وأحسنه ما دل عليه معنى أو قرينة أو نظير أو قياس . الأمالي لابن الشجري المقدمة ٨٦ تحقيق : الدكتور محمود محمد الطناحي الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١ م ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٥٧/٢

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٤٩/٥ ، البحر المديد ٣١٣/٣، روح المعاني ٣٩٦/٨-٣٧١

(٣) سورة البقرة ٢ من الآية ٢٥

(٤)الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسيّ ٢٤٦/٦ الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق بيروت ط: الثانية، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م

وفي قوله تعالى : [خَٰلِدِينَ فِيهَا] إشارة إلى دوام النعيم وعدم انقطاعه ، فهو من تمام نعيم أهل الجنة ، وهو الخلد الدائم فيها ، الذي يتضمن دوام نعيمها ، وزيادته ، وعدم انقطاعه . (١)

والحِوَلُ : هو التحول والانتقال من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال . (٢)

وقوله تعالى : [لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا] تكميل (٣) **أُتي به دفعًا لتوهم أن وجودهم في الجنة ، وخلودهم فيها قد يسبب لهم شيئاً من السآمة والملل فيريدون تحولاً عنها ، وانتقالاً منها .**

يقول ابن كثير : وفيه تنبيه على رغبتهم فيها، وحبِّهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ٤٨٨/١ تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

(٢) قال الجوهري : التحول : التنقل من موضعٍ إلى موضع، والاسم الحِوَلُ ، ومنه قوله تعالى: {خالدينَ فيها لا يَبْغونَ عنها حِوَلاً} ، وفي مختار الصحاح : حَالَ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ يَحُولُ (حَوْلاً) وَ (حِوَلاً) بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِ الْوَاوِ أَيْ تَحَوَّلَ . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي ١٦٨٠/٤ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، مختار الصحاح للرازي ٨٤/١

(٣) التكميل نوع من الإطناب وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ، ويسمى الاحتراس أيضاً ، لأن فيه التوقي والاحتراز عن توهم خلاف المقصود . الإيضاح ٢٠٨/٣

أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي ، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعناً [١]، ولا رحلة [٢] ، ولا بدلاً [٣] . [٤]

وقال ابن الجوزي : فإن قيل: قد عُلم أن الجنة كثيرة الخير، فما وجه مدحها بأنهم لا يبغون عنها حِوَلاً ؟ فالجواب: أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى، وقد يملّ، والجنّة على خلاف ذلك . [٥]

وأتى بجملة [لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا] أولاً للمبالغة : في نهاية كمال النعيم الذي وصلوا إليه ، بحيث إنهم لا يتطلعون إلى غيره ، فلا شيء أعز عندهم ، وأعلى رفعة منه ، حتى تتطلع إليه أنفسهم ، أو تطمح نحوه أبصارهم .

(١) ظَعَنَ يَظْعَنُ ظَعْناً وظَعَناً، بِالتَّحْرِيكِ، وظُعوناً: ذَهَبَ وَسَارَ وأَظْعَنه هُوَ: سَيَّرَه. لسان العرب ٢٧٠/١٣مادة (ظ ع ن)

(٢) قال في القاموس: ارْتَحَلَ القومُ عن المكانِ: انْتَقَلوا، كتَرَحَّلوا، والاسمُ: الرُّحْلَةُ، بالضم والكسر، أو بالكسر: الارْتِحالُ، وبالضم: الوَجْهُ الذي تَقْصِدُه، والسَّفْرَةُ الواحدةُ. القاموس المحيط ١٠٠٥/١

(٣) بدل الشيء وأبدله غَيره وَالشَّيْء بِغَيْرِهِ وَمِنْه اتَّخذهُ عوضاً عَنهُ وخلفا لَهُ . المعجم الوسيط ٤٤/١

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٠٤/٥ ، محاسن التأويل ٨٠/٧

(٥) زاد المسير ١١٤/٣

يقول الزمخشري: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم، وهذه غاية الوصف، لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه.(١)

وثانياً لتأكيد الخلود : لأن عدم طلبهم الانتقال والتحول ، مستلزم لخلودهم فيها .

يقول الألوسي : وجوز أن يراد نفي التحول والانتقال على أن يكون تأكيداً للخلود لأن عدم طلب الانتقال مستلزم للخلود فيؤكده ، وقيل في وجه التأكيد: إنهم إذا لم يريدوا الانتقال لا ينتقلون لعدم الإكراه فيها وعدم إرادة النقلة عنها فلم يبق إلا الخلود إذ لا واسطة بينهما . (٢)

قوله تعالى: [قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾] (٣)

ورد في مناسبة نزول هذه الآية ما روي عن ابن عباس ﷺ قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فنزلت [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

(١) الكشاف ٧٥٠/٢ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٩٥/٣ ، مفاتيح الغيب ٥٠٣/٢١ ، البحر المديد ٣١٣/٣

(٢) روح المعاني ٣٧١/٨ ، إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥

(٣) سورة الكهف ١٨ الآية ١٠٩

ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا] [1] **، وقال اليهود أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت [قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي] الآية .** [2]

والخطاب في : (قُل) للنبي ﷺ ، وهو يتضمن أمر الله ﷻ لنبيه بأن يعلمهم إحاطة علمه تعالى بكل شيء ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

أي قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربى وعلمه لنفد ماء البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات، ولو مددنا ماء البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً وعوناً، ذلك أن البحار كيفما فرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي . [3]

وافتتحت الآية بالأمر بالقول : للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين لأن مثل هذا الافتتاح يشعر بأنه في غرض مهم .

---

(١) سورة الإسراء ١٧ الآية ٨٥

(٢) أخرجه الحاكم وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» المستدرك على الصحيحين للحاكم ٥٧٩/٢ رقم ٣٩٦١ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠ ، أسباب نزول القرآن للواحدي ٢٩٨/١ تحقيق : عصام الحميدان الناشر: دار الإصلاح - الدمام الطبعة : الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، لباب النقول للسيوطي ١٣٠/١ ضبطه : الأستاذ أحمد عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

(٣) مفاتيح الغيب ٥٠٣/٢١ ، تفسير المراغي ٢٦/١٦ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٨/٩

و(التعريف) في [ٱلْبَحْرُ] للجنس مراد به الاستغراق[١]، أي البحار كلها فيشمل المالح والعذب .[٢]

والمِداد : في الأصل[٣] اسم لكل ما يُمد به الشيء، ، واختص في العرف بما تُمد به الدواة من الحبر ، وما يُمد به السراج من الزيت ، أمَّا المدد فهو العون والزيادة . [٤]

(١) يعرف المسند إليه بأل لأغراض كثيرة منها إفادة الاستغراق وذلك إذا امتنع حمله على غير الأفراد وعلى بعضها دون بعض كقوله تعالى: {إن الْانْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} العصر ١٠٣ الآيتان ٢،١، والاستغراق ضربان: حقيقي وهو أن يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب اللغة كقوله تعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة} الأنعام ٦ من الآية ٧٣ ، أي كل غيب وشهادة ، وعرفي وهو أن يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب متفاهم العرف ، نحو "جمع الأمير الصاغة" إذا جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب، لا صاغة الدنيا . الإيضاح ٢٦/٢ المنهاج الواضح للبلاغة ٣٩،٣٨/٢

(٢) الكشاف ٧٥٠/٢ ، إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٨/٩

(٣) المداد: الذي يكتب به ومد الدواة وأمدها: زاد في مائها ونقسها (حبرها) وسمي المداد مدادا لإمداده الكاتب، يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثره: مده يمده مدا، أما المدد ما أمددت به قومك في حرب أو غير ذلك من طعام أو أعوان، والمداد: مصدر كالمدد ، يقال: مددت الشيء مدا ومدادا وهو ما يكثر به ويزاد. لسان العرب ٣٩٩،٣٩٨/٣ مادة (م د د)

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٤،٤٦٣/٤ ، روح المعاني ٣٧٢،٣٧١/٨ ، التفسير الوسيط ٥٨٨/٨

والمراد بكلمات الله : كلمات علمه ﷻ وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الإشراك . (١)

وفي إطلاق الكلمات على المعلومات مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون : (٢)

يقول ابن عاشور: والكلمات ما يدل على شيء من علمه مما يوحي إلى رسله أن يبلغوه، فكل معلوم يمكن أن يخبر به، فإذا أخبر به صار كلمة، ولذلك يطلق على المعلومات كلمات، لأن الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره ، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل . (٣)

وعبَّر عن الكلمات بجمع السلامة : (٤) **إشارة إلى أن قليلها بهذه الكثرة فكيف بما هو أكثر منه، وذلك أمر لا يدخل تحت وصف .** (٥)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان ١٢٥/٨ قدّم له وراجعه : خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

(٢) من علاقات المجاز المرسل اعتبار ما سيكون ، وهو النظر إلى الشيء مما سيكون عليه في المستقبل، نحو: غرست اليوم شجراً، يعني بذورا، وعليه قوله تعالى : {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} سورة يوسف ١٢ من الآية: ٣٦ أي: عنبا يئول عصيره إلى الخمرية . علوم البلاغة للمراغي ٢٥٢/١ ، المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عونى ٩٨/٥

(٣) التحرير والتنوير ٥١/١٦

(٤) جمع السلامة هو الذي يسلم فيه بناء الواحد وتزيد عليه واوًا ونونًا أوياء ونونًا في المذكر ، أو ألفاً وتاءً في المؤنث نحو مسلمين، ومسلمون، ومسلمات ألا ترى أنك سلمت فيه بناء مسلم ، فلم تغير شيئًا من نضده وألحقته واوًا ونونا أو ياء ونونًا كما فعلت في التثنية . الأصول في النحو لابن السراج ٤٦/١ تحقيق: عبد الحسين الفتلي الناشر: مؤسسة الرسالة ، بيروت

(٥) نظم الدرر ١٥١/١٢

وفي قوله [لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي] إيجاز بحذف المضاف : والتقدير : لكتابة أو لكَتْب كلمات ربي ، إذ المداد يُراد للكتابة وليس البحر مما يكتب به، ولكن الكلام بني على الفرض بواسطة (لو) . (١)

والمعنى كما قال النيسابوري : لو كتبت كلمات علم الله وحكمه ، وفُرِضَ أن جنس البحر مداد لهما لنفد البحر قبل نفاد الكلمات . (٢)

وأضيفت الكلمات (٣) **– في الموضعين– إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ ، لإفادة تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه .** (٤)

وفي قوله [مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي] استعارة مكنية تخييلية : (٥) **حيث شبهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بما هو من لوازمه وهو المداد الذي بِه الكتابة، وإثبات المداد للكلمات استعارة تخييلية .**(٦)

---

(١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، التحرير والتنوير ٥١/١٦

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٣/٤، ٤٦٤ ، الكشاف ٧٥٠/٢

(٣) يعرف المسند إليه بالإضافة لتضمنها أي – الإضافة – تعظيماً لشأن المضاف إليه كقولك: "عبدي حضر" فتعظم شأنك ، أو لشأن المضاف كقولك: "عبد الخليفة ركب" فتعظم شأن العبد، أو لشأن غيرهما كقولك "عبد السلطان عند فلان"، فتعظم شأن فلان . الإيضاح ٣٥/٢

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، روح المعاني ٣٧١/٨، ٣٧٢

(٥) يقول صاحب بغية الإيضاح : قد يضمر التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويُدَل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنيا منها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية ، ونظراً إلى أن (الاستعارة التخييلية) قرينة المكنية، فهي لازمة لا تفارقها، لأنّه لا استعارة بدون قرينة. بغية الإيضاح ٥٢٠/٣ ، جواهر البلاغة ٢٦٠/١

(٦) التحرير والتنوير ٥١/١٦

ووضع الظاهر موضع المضمر في لفظتي "البحر والكلمات" – في الموضعين الأخيرين – وكان مقتضى الظاهر أن يقول (لنفد قبل أن تنفد) لتقدم ذكرهما ، لإفادة زيادة التقرير، وللتأكيد على سعة كلمات الله تعالى، ولذا قال:{وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} يمده كما يمد الجيش بالجنود.

يقول أبو السعود : وإظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير . (١)

وعبَّر بـ "القَبْلُ" في قوله [قَبْلَ أَن تَنفَدَ] دون أن يقال « ولم تنفد» ونحوه، لأن ذلك كما قال البقاعي: كافٍ في قطعهم عن الاستقصاء في السؤال، ولأن التعبير بمثل ذلك ربما فتح باباً من التعنت وهو أن يجعلوا الواو للحال فيجعلوا النفاد مقيداً بذلك . (٢)

وقال الألوسي : وليس قوله تعالى [قَبْلَ أَن تَنفَدَ] للدلالة على أن ثَمَّ نفاداً في الجملة محققاً أو مقدراً لأن المراد منه لنفد البحر وهي باقية إلا أنه عدل إلى المنزل لفائدة المزاوجة (٣) **، وإن ما لا ينفد عند العقول العامية ينفد دون نفادها.** (٤)

---

(١) إرشاد العقل السليم٥/٢٥١ ، روح المعاني ٣٧٢،٣٧١/٨ ، زهرة التفاسير ٤٥٩٨/٩

(٢) نظم الدرر ١٥٢/١٢

(٣) المقصود بالمزاوجة هنا المزواجة اللغوية وليست البلاغية التي من البديع ، قال ابن منظور: ازْدَوَجَ الكلامُ وتَزَاوَجَ: أَشبه بَعْضُهُ بَعْضًا فِي السَّجْعِ أَو الْوَزْنِ، أَو كَانَ لإحدى القضيتين تعلق بالأُخرى . لسان العرب ٢٩٣/٢ مادة (ز و ج)

(٤) روح المعاني ٣٧٢،٣٧١/٨

وقابل بين نفاد البحر وعدم نفاد كلماته ﷻ: لأن ماء البحر ينقص وينتهي أما كلماته ﷻ فلا تنقص ولا تنتهي ، فبينهما طباق بالسلب . (١)

يقول أبو السعود : (لنفذ البحر) مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه (قبل أن تنفد) والمعنى من غير أن تنفد (كلمات ربى) لعدم تناهيها . (٢)

ويقول أبو زهرة: المقابلة في قوله تعالى:{لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي}، فإن

كلمات اللَّه لا تنتهي، ولكن عبر عن ذلك بالنفاد من قبيل الجناس(٣) **في قوله تعالى لنفد البحر.**(٤)

وأتت جملة [وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا] للزيادة في المبالغة والتأكيد على شمول علم الله ﷻ لكل شيء ، وعدم تناهيه .

---

(١) الطباق هو: أن يجمع في كلام واحد بين معنى، ومقابله، أو ضده، ويكون بلفظين من نوع واحد كأن يكونا "اسمين" أو "فعلين" أو "حرفين"، أو نوعين مختلفين كقوله تعالى:{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}سورة الأنعام ٦ من الآية ١٢٢
والطباق ينقسم إلى: طباق الإيجاب كالمثال السابق ، وطباق السلب ؛ وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، كقوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } سورة الروم من الآيتين ٦،٧ . بغية الإيضاح٥٧٤/٤ ، المنهاج الواضح للبلاغة ١٦٣/١

(٢) إرشاد العقل السليم٢٥١/٥

(٣) أي من قبيل المشاكلة في " لنفد البحر"

(٤) زهرة التفاسير ٤٥٩٨/٩

يقول أبو السعود :{ولو جئنا} كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد . (١)

وحذف جواب لو : لدلالة المعنى عليه، والتقدير: لنفد أيضاً ، ففيه إيجاز بحذف جواب الشرط . (٢)

وعطف قوله تعالى : [وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا] بالواو على جملة محذوفة دلت عليها هذه الجملة ففيه إيجاز بحذف جملة .

يقول أبو السعود : والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أي: لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مداداً، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة . (٣)

والآية كناية (٤) **عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها المسائل التي سألوا عنها النبي ﷺ فلا يقتضي قوله: { قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي } أن لكلمات الله تعالى نفاداً .** (٥)

---

(١)إرشاد العقل السليم٥/٢٥١ ، روح المعاني ٣٧٢،٣٧١/٨ ، التفسير الوسيط ٥٨٨/٨

(٢) الكشاف ٧٥٠/٢ ، البحر المحيط ٢٣٤،٢٣٣/٧ ، الإتقان ٣،٢١٤

(٣) إرشاد العقل السليم٥/٢٥١ ، روح المعاني ٣٧٢،٣٧١/٨ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٢٦/٨

(٤) الكناية لغة : ما يتكلم به الإنسان، ويريد به غيره، وهي: مصدر كنيت، أو كنوت بكذا، عن كذا، إذا تركت التصريح به ، واصطلاحاً: لفظ أريد به غيرُ معناهُ الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي، لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته نحو : "فلان طويل النجاد" أي: طويل القامة . بغية الإيضاح ٣/ ٥٣٨ ، جواهر البلاغة ٢٨٦/١

(٥) التحرير والتنوير ٥١/١٦

يقول البقاعي : وهذا كله كناية عن عدم النفاد . (١)

وبين لفظي [مِدَادًا] و[مَدَدًا] جناس ناقص مكتنف (٢) **حيث اتفق اللفظان في عدد الحروف وزاد أحدهما عن الآخر بحرف في الوسط .**

ولمراعاة فواصل الآيات(٣) **قال في آخر الآية [مَدَدًا] ، وفي أولها [مِدَادًا] مع اتفاقهما في المعنى والاشتقاق .**

يقول ابن الجوزي: فإن قيل: لم قال في أول الآية: «مداداً» وفي آخرها: «مدداً» وكلاهما بمعنى واحد، واشتقاقهما غير مختلف ؟

---

(١) نظم الدرر ١٥٢/١٢

(٢) إذا اختلف اللفظان في عدد الحروف، بأن يكون عدد أحد اللفظين زائدًا سمي "الجناس الناقص" لنقصان أحد اللفظين عن الآخر، وهو على ثلاثة أنواع: مطرف، ومكتنف، ومذيل .
فالمطرف: ما كان فيه الزيادة في أول اللفظ نحو: دوام الحال من المحال.والمكتنف: ما كان فيه الزيادة في وسط اللفظ نحو: جدي جهدي ، والمذيل: ما كان فيه الزيادة في آخر اللفظ نحو: الهوى مطية الهوان. المنهاج الواضح للبلاغة١٨٣/١، ١٨٤ ، جواهر البلاغة٣٢٦/١

(٣) الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع ، والفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني ، وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها وأخذا من قوله تعالى: {كتاب فصلت آياته} سورة فصلت ٤١ من الآية ٣ ، ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعا لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه . الإتقان ٣٣٢/٣، ٣٣٤

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: لما كان الثاني آخر آية، وأواخر الآيات ها هنا أتت على الفعل، كقوله تعالى: «نُزُلاً» «هُزُواً» «حِوَلاً» كان قوله: «مَدَداً» أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد، واتفاقُ المقاطع عند أواخر الآي، وانقضاء الآيات، وتمام السجع والنثر، أخف على الألسن، وأحلى موقعاً في الأسماع، فاختلفت اللفظتان لهذه العلة. (١)

وقد عدَّ أبو الحسن الرُّماني التلاؤم في القرآن وجهاً من وجوه إعجازه حيث قال: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك أنَّ الفواصل تابعة للمعاني ، وأمَّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها.

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يُدل بها عليها، وإنما أُخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كما في سجع الحمامة، إذ كان المعنى لمَّا تُكُلِّفَ من غير وجه الحاجة إليه، والفائدة فيه لم يعتد به، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة.

والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وإبداؤها في الآي بالنظائر . (٢)

ويقول الدكتور/ محمد أبو موسى: أقام القرآن أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب لوحظ ذلك في حروفه، وكلماته، وجمله،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ١١٤/٣

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطّابي والجرجاني ص ٩٧-٩٩ بتلخيص ، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، طبعة دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦م

وصارت أصواته كما يقول المرحوم الرافعي : ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هو توقيعها. (١)

قوله تعالى : [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾] (٢)

في هذه الآية أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يخبر المشركين – بعد ما بيَّن لهم شأن كلماته تعالى–، أنه بشر مثلهم ، خصَّه الله بالوحي والرسالة ، ومما أُوحي به إليَّ أن أبلغكم بأن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبود واحد لا ثاني ولا شريك له ، فالواجب على كل من يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته أن يُخلص له العبادة، ويفرد له الألوهية .

قال الخطيب: بهذه الآية تختم سورة الكهف، بتقرير بشريّة الرسولﷺ، وأنه وجميع رسل الله، ليسوا إلا خلقاً من خلق الله، وعبيداً من عبيده، اختصهم الله برحمته، واصطفاهم لرسالته..

وكما تقرر الآية بشريّة الرسول، تقرّر الطريق السوي الذي ينبغي أن يستقيم عليه الإنسان كي يكون في عباد الله الصالحين المؤمنين.....، وهذا الطريق إنما يقوم على الإيمان بالله، وباليوم الآخر،

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د / محمد محمد أبو موسى ٣٦٣/١ ، الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة

(٢) سورة الكهف ١٨ الآية ١١٠

والعمل الصالح، الذي لا يجد الإنسان غيره في هذا اليوم، مركباً يدفع به إلى شاطئ الأمن والسلام ، ويفتح له أبواب الجنة والرضوان . (١)

وجاء الأمر بالقول للنبي ﷺ لأنه جزء من تبليغ رسالة ربه، وافتتحت الآية بالأمر بالقول: للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين لأن مثل هذا الافتتاح يشعر بأنه في غرض مهم .

وفي الآية الكريمة أسلوبا قصر (٢) **:**

الأول: في قوله ﷻ [إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ] من قصر الموصوف وهو الرسول ﷺ على الصفة وهي صفة البشرية، على سبيل القصر الإضافي(٣) **، وهو قصر قلب .** (٤)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧١٨/٨ ، جامع البيان في تأويل القرآن ١٣٥/١٨ ، التفسير الواضح ٤٤٢/٢

(٢) القصر : لغة الحبس ، واصطلاحاً : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، والشيء الأول: هو المقصور، والشيء الثاني: هو المقصور عليه ، والطريق المخصوص يكون بـ (النفي والاستثناء) أو (بإنَّما) أو (بالعطف بلا - وبل - ولكن) أو (بتقديم ما حقّه التأخير) وغيرها من الطرق . المنهاج الواضح للبلاغة ٦٩/٢١ ، جواهر البلاغة ١٦٥/١،١٦٦

(٣) ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع إلى قسمين : قصر حقيقي وهو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع ، بألا يتعدَّاه إلى غيره أصلا - نحو لا إله إلاَّ اللهُ .

وقصر إضافي - وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه، نحو: ما خليل إلا مسافر: إذا أردت قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلا وليس قصدك أنه لا يوجد مُسافر سواه، إذ الواقع يشهد ببطلانه. جواهر البلاغة ١٧١/١

(٤) ينقسم القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام: قصر إفراد إذا اعتقد المخاطب الشركة بين شيئين فأكثرنحو: {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وأتى بطريق "إنما" التي تستعمل فيما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، وبشرية الرسول ﷺ مما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات. (١)

والثاني: في قوله ﷻ [أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ] قصر موصوف وهو الله ﷻ على صفة وهي صفة الوحدانية، وهو أيضاً قصر إضافي من قصر القلب ، والمعنى: يوحي الله إلي توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة .

يقول الألوسي : والقصر في الموضعين بناء على القول بإفادة إنما بالكسر وأنما بالفتح الحصر من قصر الموصوف على الصفة قصر قلب والمقصور عليه في الأول أَنَا والمقصور البشرية مثل المخاطبين .

وَاحِدٌ} سورة النساء ٤ من الآية ١٧١، خوطب به من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة، بدليل قوله قبلها: {وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ} النساء ٤ من الآية ١٧١، وقصر قلب إذا كان المخاطب يعتقد عكس الحكم فتقلب عليه اعتقاده نحو: ما شاعر إلا شوقي رداً على من زعم أن غيره أشعر منه،وقصر تعيين إذا كان المخاطب مترددا في الحكم نحو: ما شاعر إلا شوقي رداً على من تردد في إثبات الشعر له ولبعض الشعراء الآخرين . علوم البلاغة ١٥٦/١ ، البلاغة العربية ٥٢٨/١

(١) يقول الإمام عبد القاهر: اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك القديم)، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب . دلائل الإعجاز ٢٧٨/١

والمقصور الثاني إِلـهُكُمْ أي معبودكم الحق والمقصور عليه الوحدانية المعبر عنها بإله واحد أي لا يتجاوز معبودكم بالحق تلك الصفة التي هي الوحدانية أي الوحدة في الألوهية إلى صفة أخرى كالتعدد فيها الذي تعتقدونه أيها المشركون . (١)

وعن بلاغة أسلوب القصر يقول الهاشمي : والقصر من ضروب الإيجاز الذي هو أعظم ركن من أركان البلاغة ، إذ إن جملة القصر في مقام جملتين، فقولك (ما كامل إلا الله) تعادل قولك: الكمال لله، وليس كاملاً غيره ، كما أن القصر يحدد المعاني تحديداً كاملاً . (٢)

والفاء في قوله: [فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ] للتفريع حيث فرَّع على حصر الوحدانية له ﷻ: إثبات البعث ، والأمر بالعمل الصالح .

يقول الألوسي : والظاهر أن الفاء للتفريع على قصر الوحدانية عليه تعالى، ووجه ذلك على أن كون الإله الحق واحداً يقتضي أن يكون في غاية العظمة والكمال واقتضاء ذلك عمل الطامع في كرامته عملاً صالحاً وعدم الإشراك بعبادته مما لا شبهة فيه . (٣)

وقال الشيخ ابن عاشور: وتفريع {فمن كان يرجوا لقاء ربه} هو من جملة الموحى به إليه، أي يوحى إلي بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة ، فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلاً لها وفرَّع عليه الأصلين الآخرين . (٤)

---

(١) روح المعاني ٣٧٢/٨ ، التحرير والتنوير ٥٤/١٦،٥٥

(٢) جواهر البلاغة ١٧٣/١

(٣) روح المعاني ٣٧١/٨-٣٧٥

(٤) التحرير والتنوير ٥٤/١٦،٥٥

والأصل في الرجاء [١]: **أنه طمع حصول ما فيه مسرة في المستقبل، ويستعمل بمعنى الخوف .** [٢]

يقول ابن عطية : ويرجو على بابها، وقالت فرقة: يرجو بمعنى يخاف، وكل موقن بلقاء ربه، فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، فلو عبَّر بالخوف لكان المعنى تاماً على جهة التخويف والتحذير، وإذا عبر بالرجاء فعلى جهة الإطماع وبسط النفوس إلى إحسان الله تعالى، أي فمن كان يرجو النعيم المؤبد من ربه فليعمل عملاً صالحاً . [٣]

ولقاء الله ﷻ إمَّا بمعنى رؤيته ﷻ، وإمَّا بمعنى لقاء ثوابه أو عقابه . [٤]

وفي قوله تعالى: [فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ] إيجاز بحذف المضاف والتقدير : فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه ، أي ثوابه أو رؤيته ، وهذا على تفسير الرجاء بمعنى الطمع .

أو التقدير فمن كان يخاف سوء لقائه ، أي لقاء جزائه ، على تفسير الرجاء بالخوف . [٥]

---

(١) قال الراغب : الرَّجَاءُ ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة ، قال تعالى: {ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً} سورة نوح ١٣، وقيل : ما لكم لا تخافون ووجه ذلك أنّ الرَّجَاءَ والخوف يتلازمان، قال تعالى: {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ} سورة النساء٤ من الآية ١٠٤ . المفردات ٣٤٦/١

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٦/٣ ، البحر المحيط ٢٣٤/٧ ، إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، روح المعاني ٣٧٢/٨

(٣) المحرر الوجيز ٥٤٧/٢

(٤) مفاتيح الغيب ٥٠٤/٢١ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٤/٤ ، روح المعاني ٣٧١/٨-٣٧٥

(٥) الكشاف ٧٥٠/٢،٧٥١ ، روح المعاني ٣٧١/٨-٣٧٥

يقول أبو حيان: ويرجو بمعنى يطمع ولقاء ربه على تقدير محذوف أي حسن لقاء ربه، وقيل يرجو أي يخاف سوء لقاء ربه أي لقاء جزاء ربه، وحمل الرجاء على بابه أجود لبسط النفس إلى إحسان الله تعالى . (١)

<u>وأتبع الفعل الماضي بالمستقبل</u> : في قوله تعالى [فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ] لحث المؤمنين على المداومة في طلب رجاء لقاء الله ﷻ .

يقول الألوسي: وإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحق العبد الاستمرار والاستدامة على رجاء الكرامة من ربه ، فكأنه قيل فمن استمر على رجاء كرامته ﷻ فليعمل عملاً صالحاً في نفسه لائقاً بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . (٢)

<u>وفي التعبير بلفظ الرب</u> في قوله: [لِقَاءَ رَبِّهِ] دون (لقاء الله) مثلاً ، ذلك لأن الرب يعني المحسن إلى كل أحد، والمالك لكل شيء ، والمستحق والصاحب له ، والمصلح والقائم على الشيء ، وله الفضل على جميع الخلق .

يقول البقاعي : وإنما قال: {لقاء ربه} تنبيهاً على أنه ﷻ هو المحسن إلى كل أحد بالتفرد

بخلقه ورزقه، لا شريك له في شيء من ذلك ، على قياس ما نعلمه من أنه لا مالك إلا وهو قاهر

---

(١) البحر المحيط ٢٣٤/٧ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٩٥/٣ ، البحر المديد ٣١٤/٣

(٢) روح المعاني ٣٧٢/٨ ، إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ،

لمملوكه على لقائه ، مصرف له في أوامره في صباحه ومسائه.(١)

ووضع الظاهر مكان الضمير في قوله [لِقَآءَ رَبِّهِۦ] ، وفي قوله [بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ] بدلاً من (لقائه) و(بعبادته) ، والإتيان بلفظ الرب ، لزيادة تقريرهم بكونه ربهم ، ولتعليل الأمر والنهي ، وهذا خروج بالكلام عن مقتضى الظاهر.

يقول أبو السعود : ووضع الظاهر موضع الضمير في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير، وللإشعار بِعِلِّيَّة العنوان للأمر والنهي، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً . (٢)

وأكد الفعل [فَلْيَعْمَلْ] بمصدره للإعلام بأنه لا بد مع التصديق من الإقرار فقال: {عملاً} أي ولو كان قليلاً {صالحاً} ، وهو ما يأمره به من أصول الدين وفروعه من التوحيد وغيره من أعمال القلب والبدن والمال ليسلم من عذابه. (٣)

وفي الآية من علم البديع الإدماج (٤) إذ سيقت الآية الكريمة لإثبات بشرية الرسولﷺ ونفي علمه بالمغيبات، وأدمج في هذا الغرض

(١) نظم الدرر ١٥٣/١٢

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، روح المعاني ٣٧٣/٨

(٣) نظم الدرر ١٥٣/١٢

(٤) الإدماج من المحسنات المعنوية وهو : في اللغة إفعال من قولهم أدمج حديثه إذا أدخل بعضه فى بعض، وفي الاصطلاح هو أن يُضمَّن كلام قد سيق لمعنى، معنى آخر، لم يصرح به كقول المتنبي: أقلب فيه أجفاني كأني ... أعد به على الدهر الذنوبا

أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله ﷺ ، وهو توحيد الله ﷻ والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله ﷻ . (١)

وللإدماج هنا دوره وبلاغته في التعبير القرآني فحَسُن في موقعه، وجَمُل في مكانه .

و قوله تعالى : [وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا] إما أن يراد به الشرك الجلي كالذي فعله الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائه ، أو الخفي وهو الرياء ، كمن يطلب بعمله أجراً من المدح وغيره ، وهذا هو الأظهر، ويؤيده سبب نزول الآية (٢) **، وعليه كثير من المفسرين .** (١)

فالشاعر ساق : هذا الكلام (أصالة) لبيان طول الليل، (وأدمج) الشكوى من الدهر، في وصف الليل بالطول . الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٨٨/٣ ، علوم البلاغة ٣٤٤/١ ، جواهر البلاغة ٣٠٥/١

(١) التحرير والتنوير ٥٥،٥٤/١٦

(٢) فقد ورد فيه أحاديث كثيرة منها : ما روي من أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ:إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه سرني فقال لي: إن الله تعالى لا يقبل ما شورك فيه فنزلت الآية تصديقا له ﷺ ، وروي نحو هذا عن مجاهد وطاووس. أسباب نزول القرآن للواحدي ٣٠٧/١ رقم ٦٠٣ ، جامع البيان في تأويل القرآن ١٣٦/١٨ .

وقد سمَّى رسول اللهﷺ الرياء شركاً حيث قال: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: " الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة: إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء " مسند الإمام أحمد ٣٩/٣٩ رقم ٢٣٦٣٠ تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرون، وقال المحقق : حديث حسن، رجاله رجال الصحيح، الناشر: مؤسسة الرسالة ط : الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

يقول الألوسي : ويؤيد إرادة عدم الرياء : تقديم الأمر بالعمل الصالح على هذا النهي فإن وجهه حينئذ ظاهر إذ يكون الكلام في قوة قولك من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً في نفسه ولا يُري بعمله أحداً فيفسده . (٢)

وفي الآية الكريمة أسلوب بديعي وهو رد العجز على الصدر: حيث أكد الإخبار بالوحدانية

بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى . (٣)

كما أن عجز السورة جاء مطابقاً لصدرها أيَّما مطابقة : فقد تحدث الله ﷻ في أولها عن إنزاله القرآن الكريم لهداية الناس إلى الطريق الأقوم(٤) **، مع تبشير المؤمنين ، وإنذار الكافرين .___وهو ما ختمت به السورة في الحديث عن الكتاب ، وإثبات الوحدانية ، والنهي عن الشرك .**

يقول البقاعي : وقد انطبق آخر السورة على أولها بوصف كلمات الله ثم ما يوحى إليه، وكل منهما أعم من الكتاب بالأقومية ، للدعاء إلى

---

(١) التفسير البسيط ١٧٦/١٤ ، الكشاف ٧٥٠/٢،٧٥١ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٩٥/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥١/٥ ، البحر المديد ٣١٤/٣ ، محاسن التأويل ٨٢/٧

(٢) روح المعاني ٣٧١/٨-٣٧٥

(٣) التحرير والتنوير ٥٤/١٦،٥٥

(٤) قال ابن منظور: القَوامُ: العَدْل؛ قَالَ تَعَالَى: (وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً) سورة الفرقان ٢٥ من الآية ٦٧؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) سورة الإسراء ١٧ من الآية ٩؛ وقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ لِلْحَالَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الحالاتِ . لسان العرب ٤٩٩/١٢ مادة (ق و م)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٢٩/٣

الحال الأسلم، في الطريق الأقوم، وهو التوحيد عن الشريك الأعم من الولد وغيره، والإحسان في العمل، مع البشارة لمن آمن، والنذارة لمن أعرض عن الآيات والذكر، فبان بذلك أن الله ﷻ بوحدانيته وتمام علمه وشمول قدرته صفات الكمال، فصح أنه المستحق لجميع الحمد . (١)

(١) نظم الدرر ١٢/١٥٢-١٥٤

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الفصل الثاني

الخصائص البلاغية في سورة مريم

من أول السورة

إلى قوله تعالى {وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا }(١)

وفيه تمهيد ومبحثان :

فالتمهيد : بين يدي السورة الكريمة

وفي المبحث الأول: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

وفي المبحث الثاني: الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن:

قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام

(١) سورة مريم ١٩ الآيات ١-٢١

تمهيد

بين يدي السورة الكريمة

١) مكيتها أو مدنيتها: الجمهور من العلماء على أنَّ سورة مريم مكية كلها ، وذكر القرطبي وغيره الإجماع على ذلك ، ولم يذكرها السيوطي في السور المختلف فيها . (١)

وقيل مكية باستثناء آيتين وهما قوله تعالى [أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا] (٢) **وقوله ﷻ: [وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا]** (٣) **، فمدنيتان ، ونصَّ عليهما صاحب الإتقان .** (٤)

٢) تسميتها: تسمى أي سورة من سور القرآن الكريم بالاسم الذي يذكر من خلال نص، أو من خلال مضمون السورة .

وسورة مريم اشتهر تسميتها بهذا الاسم، ويظهر أنه كان بتوقيف من النبي ﷺ .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٢/١١ ، الإتقان ١/ ٣٩-٤٦ ، المحرر الوجيز ٣/٤ ، فتح القدير ٣٧٨/٣ ، التفسير الوسيط ٩/٩

(٢) سورة مريم ١٩ الآية ٥٨

(٣) سورة مريم ١٩ الآية ١٧

(٤) الإتقان ٦١/١ ، الكشاف ٣/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٢/٥ ، روح المعاني ٣٧٧/٨

فقد أخرج الطبراني من طريق أبي بكر ابن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية فقال ﷺ:"والليلة أنزلت علي سورة مريم " (١)

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – تسميتها بسورة «كهيعص» . (٢)

٣) <u>عدد آياتها</u> : اختُلف في عدد آياتها: فعدها المدني الثاني والمكي تسعاً وتسعين آية وهذا بِعَدِّهِما قوله تعالى [وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ] (٣) **في الموضع الأول** (٤) **، ولم يَعُدَّه الباقون فصارت عندهم ثمان وتسعون آية** (٥)**، ومن المعلوم أن هذا الخلاف خلافٌ لفظي لا حقيقي .**

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣٢٢/٢٢ رقم ٨٣٤ تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية

(٢) روح المعاني ٣٧٧/٨ ، التفسير الوسيط ١٠/٩ ، بيان المعاني المؤلف: عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ١٣٦/٢ الناشر: مطبعة الترقي – دمشق الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م

(٣) سورة مريم ١٩ الآية ٤١

(٤) التقييد بالأول لإخراج الموضع الثاني وهو{أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ} سورة مريم ١٩ الآية ٤٦، والثالث وهو {وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيم} سورة مريم ١٩ الآية ٥٨ فإنه متفق على تركهما

(٥) البيان في عدّ آي القرآن للداني ١٨١/١ ، الفرائد الحسان في عد آي القرآن لعبد الفتاح القاضي ٤٤/١

٤) صلة السورة بما قبلها : هذه السورة شديدة الصلة والارتباط بما قبلها وذلك يؤكد الوحدة الموضوعية في آي وسور القرآن الكريم .

وقد كشف عن هذه المناسبة أبو جعفر ابن الزبير في كتابه البرهان ، وقال كلاماً نفيساً أنقله بنصه لأهميته يقول: لما قال ﷻ [أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا] [(١)] ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر –عليهما السلام– وقصة ذي القرنين.

أتبع ﷻ ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجباً وأخفى سبباً فافتتح سورة مريم ببشارة زكريا بيحيى – عليهما السلام – بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج، حتى سأل زكريا مستفهماً ومتعجباً [أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا][(٢)] .

فأجابه الله تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس، وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة، فكأنه قيل : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيمِ كانوا من آياتنا عجباً، نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية، وهو قصة زكريا في ابنه يحيى –عليهما السلام –، وقصة عيسى عليه السلام في كينونته بغير أب.[(٣)]

---

(١) سورة الكهف ١٨ الآية ٩

(٢) سورة مريم ١٩ الآية ٨

(٣) البرهان فى تناسب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير تحقيق: محمد شعباني دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ

٥) <u>مقاصدها</u> : اشتملت هذه السورة على مقاصد جليلة منها:

١- افتتحت سورة مريم بذكر قصة ولادة يحيى بن زكريا -عليهما السلام-، من أب شيخ كبير وأم عاقر لا تلد ، ثم أردفت ذلك بقصة ولادة عيسى من مريم ، من غير أب، لتكون دليلاً آخر على القدرة الربانية .

٢- تحدثت السورة بعد ذلك عن قصص الرسل الكرام إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس - عليهم السلام - .

٣ - ذكرت السورة الكريمة أنماطاً من الشبهات التي تفوه بها الضالون، ومن هذه الشبهات ما يتعلق بالبعث والنشور، ومنها ما يتعلق بموقفهم من القرآن الكريم ، وقد ردت على كل شبهة من هذه الشبهات بما يبطلها .

٤ - اهتمت سورة مريم بإقامة الأدلة على وحدانية الله ﷻ ونفى الشريك والولد عن ذاته ﷻ .[١]

يقول ابن عجيبة : المقصود من السورة الرد على النصارى في إشراكهم عيسى عليه السلام لله تعالى في ألوهيته ، فهي كالتتميم لقوله: {وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} .[٢]

المغرب عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م نظم الدرر ١٦٠/١٢ ، البحر المحيط ٢٣٧/٧ ، روح المعاني ٣٧٧/٨ ، تفسير المراغي ٣٢/١٦ ، التفسير القرآني للقرآن ٧٢١/٨

(١) تفسير المراغي١٦ /٩٠-٩٢ ، التفسير المنير ٤٧/١٦-٤٩ ، التفسير الوسيط ٩/٩-١١

(٢) البحر المديد ٣١٧/٣

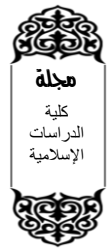
مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

المبحث الأول

الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :

قصة زكريا ويحيى

عليهما السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾] (١)

قوله ﷻ [كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾] بهذه الأحرف الخمسة افتتحت سورة مريم ، وهى تكاد تكون فريدة في البدء بهذا العدد الكثير من الحروف، لا يشاركها فيه إلا سورة الشورى، فقد بدأت مثلها بخمسة

(١) سورة مريم ١٩الآيات ١-١١

أحرف مرتبة على هذا النحو: [حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢] [١] ، وقد انفردت كل منهما بأربعة أحرف، واشتركتا معاً في حرف واحد هو العين ، ولا يمكن تعليل هذه الكثرة من الحروف ، فذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا يزال سراً محجباً لم ينكشف .

وقد تباينت آراء المفسرين في المراد من هذه الحروف المقطعة الواقعة في أول سور عدة مجموعها تسع وعشرون سورة ومعظمها في السور المكية، وكان بعضها في ثاني سورة نزلت وهي [نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١] [٢].

وأجدر بها أن تكون مصدر آراء وأقوال متعددة وأبحاث كثيرة، ومجموع ما وقع من حروف الهجاء في أوائل السور أربعة عشر حرفاً وهي نصف حروف الهجاء وأكثر السور التي وقعت فيها

هذه الحروف: السور المكية ، ومن السور المدنية البقرة وآل عمران.

والحروف الواقعة في أوائل السور مجموعة في قولهم :(صله سحيراً من قطعك) بعضها تكرر في سور وبعضها لم يتكرر وهي من القرآن لا محالة ومن المتشابه في تأويلها. [٣]

وقد تعددت أقوال العلماء في المراد من هذه الحروف ومجموع هذه الأقوال يرجع إلى قولين :

(١) سورة الشورى ٤٢ الآيتان ٢،١
(٢) سورة القلم ٦٨ من الآية ١
(٣)التحرير والتنوير ٢٠٦/١

القول الأول : أن المراد من هذه الفواتح غير معلوم لأنه مما استأثر الله بعلمه: وقد روي هذا القول عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر وعلي – رضي الله عنهما– .

يقول الفخر: للناس في قوله تعالى: {الم} وما يجري مجراه من الفواتح قولان: أحدهما: أن هذا علم مستور وسر محجوب استأثر به الله تبارك وتعالى .

قال أبو بكر الصديق ﷺ: لله في كل كتاب سر وسره في القرآن أوائل السور.

وقال علي ﷺ: إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. (١)

القول الثاني: أن المراد من هذه الفواتح معلوم وذكر العلماء فيه وجوهاً كثيرة أذكر منها :

١ . أنها حروف مقتضبة من أسماء وصفات الله تعالى المفتتحة بحروف مماثلة لهذه الحروف المقطعة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقاله محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس فـ{الم} مثلاً: الألف إشارة إلى أحد أو أول أو أزلي، واللام إلى لطيف، والميم إلى ملك أو مجيد، ونحو ذلك، وعلى هذا يحتاج في بيانها إلى توقيف ولا توقيف.

٢. أن هذه الحروف أقسم الله تعالى بها كما أقسم بالقلم تنويهاً بها، لأن مسمياتها تألفت منها أسماء الله تعالى، وأصول التخاطب والعلوم، قاله الأخفش.

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٠/٢

وقد وَهَنَ هذا القول بأنها لو كانت مقسماً بها لذكر حرف القسم إذ لا يحذف إلا مع اسم الجلالة عند البصريين، وبأنها قد ورد بعدها في بعض المواضع قسم نحو: (ن وَالْقَلَمِ)[1] و (حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ)[2] ، وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم واحد .

٣ ـ أنها أسماء للسور التي وقعت فيها، قاله زيد بن أسلم، ونسبه الزمخشري للأكثر ويعضده وقوع هذه الحروف في أوائل السور فتكون قد جعلت أسماء بالعلامة على تلك السور، وسميت بها، وقد سمت العرب بأسماء الحروف كما سموا لام الطائي والد حارثة، وسموا الذهب عين ، والحوت نون، والجبل قاف .

ويبعد هذا القول بعداً ما أن الشأن أن يكون الاسم غير داخل في المسمى وقد وجدت هذه

الحروف مقروءة مع السور بإجماع المسلمين، على أنه يرده اتحاد هذه الحروف في عدة سور مثل الم والر وحم ، وأنه لم توضع أسماء السور الأخرى في أوائلها.

٤ ـ أن هذه الحروف جيء بها للتحدي والإعجاز، وبيان ذلك : أنها سيقت مساق التهجي مسرودة على نمط التعديد في التهجية تبكيتاً للمشركين وإيقاظاً لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تُحُدُّوا بالإتيان بسورة مثله، هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة، ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف ومعالجة النطق تعريضاً بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة،

(١) سورة القلم من ٦٨ الآية ١
(٢) سورة الزخرف ٤٣ الآية ١

فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه، وقد ذهب إلى هذا القول المبرد وقطرب والفراء.

قال الزمخشري: وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل.(١)

ويؤيده وقوعها في فواتح السور ذلك أن كل سورة مقصودة بالإعجاز لأن الله تعالى يقول: [فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ] (٢)، فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته.

ويؤيد هذا القول أن التهجي ظاهر في هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره وأن التهجي معروف عندهم للتعليم فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ.

٥. أنها حروف قصد منها تنبيه السامع مثل النداء المقصود به التنبيه لإيقاظ ذهن السامع قاله ثعلب والأخفش وأبو عبيدة ، وذلك أن الكفار كانوا يعرضون عن سماع القرآن فقالوا: [لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ] (٣) ، فأوردت لهم هذه الحروف ليقبلوا على طلب فهم المراد منها فيقع إليهم ما يتلوها بلا قصد. (٤)

---

(١) الكشاف ٢٧/١، ٢٨

(٢) سورة البقرة ٢ من الآية ٢٣

(٣) سورة فصلت ٤١ من الآية ٢٦

(٤) مفاتيح الغيب ٢٥٢/٢- ٢٥٥ ، التحرير والتنوير بتلخيص ٢٠٧/١- ٢١٥

وقيل في تفسير فاتحة سورة مريم أقوال أخرى منها: ما روي عن ابن عباس– رضي الله عنهما–: أنها حروف يدل كل واحد منها على صفة من صفات الله ﷻ فـ "كاف" يدل على كريم، و"ها" يدل على هادٍ، و"يا" من حكيم، و"عين" يدل على عالم، و"صَادْ " يدل على صادق.(١)

وقد جاءت هذه الفواتح مفرقة على السور: ولم تُعَد بأجمعها في أول القرآن ذلك لأن الشيء إذا كُرر مرة بعد أخرى كان ذلك أدعى إلى تقريره في الأسماع والقلوب.

كما أنها اختلفت في أعداد حروفها : حيث جاءت على حرف وحرفين إلى خمسة ، وهذا من التنوع في الكلام ، وفيه مراعاة لأساليب العرب .

يقول الزمخشري : فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها في أول القرآن؟ ومالها جاءت مفرقة على السور؟ .

قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد، أوصل إلى الغرض وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها؟ قلت: هذا على عادة افتنانهم في أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٧/٣ ، جامع البيان في تأويل القرآن ١٨-١٣٩-١٤١ ، النكت والعيون ٣٥٣،٣٥٢/٣ مفاتيح الغيب ٥٠٦/٢١ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٤/١١

وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. (١)

وقرئت هذه الحروف مقطعة : لقصد تمييز بعضها عن بعض، وتنوعت في النطق بها فقيل (كاف ، وصاد) ، و(ها ، ويا) لأنه الأسهل في الكلام ، والأمتع في السمع .

يقول ابن الجوزي : فإن قيل: لم قالوا: ها، ويا، ولم يقولوا في الكاف: كا، وفي العين: عا، وفي الصّاد: صا، لتتفق المباني كما اتفقت العلل؟ .

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال: حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم، فيغيّرون بعض الكِلَم ليختلف الوزن وتتغيَّر المباني، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع . (٢)

وهذه الحروف المقطعة إن جُعلت اسماً للسورة فمحلُّها الرفعُ إما على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والتقديرُ : هذا كهيعص أي مسمًّى به ، أو على أنَّه مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: {ذكر رحمة رَبّكَ} أي المسمّى به ذكرُ رحمة .

أمَّا إذا كانت مسرودةً على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب ، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدّدة . (٣)

---

(١) الكشاف ٣١،٣٠/١

(٢) زاد المسير ١١٧/٣

(٣) الكشاف ٣١/١ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٣،٢٥٢/٥

قوله تعالى : [ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣] (١)

ذكر الرحمة معناه : بلوغها وإصابتها كما يقال ذكرني معروفك أي بلغني . (٢)

قال النيسابوري : وقيل: يحتمل على هذا أن تكون الرحمة عبارة عن زكريا عليه السلام لأن كل نبي رحمة لأمته، ويجوز أن يكون رحمة لنبينا ﷺ ولأمته، لأن طريقه في الإخلاص والابتهال يصلح لأن يقتدى به وكان ذكره رحمة لنا ولنبينا . (٣)

وارتفع لفظ : { ذِكْرُ} : إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ؛ أي هذا ذكر أو المتلو ذكر، أو مبتدأ والخبر محذوف ؛ أي فيما يتلى عليك ذكر ، أو على أنه خبر للحروف المقطعة ، وعلى الوجه الأول فيه إيجاز بحذف المسند إليه .

قال أبو البقاء : « وفيه – أي الوجه الأخير – بُعد؛ لأن الخبر هو المبتدأ في المعنى، وليس في الحروف المقطعة ذكر الرحمة، ولا في ذكر الرحمة معناها» . (٤)

وأضيف المصدر { ذِكْرُ} : إلى مفعوله وهو الرحمة، والرحمة في نفسها مصدر أيضاً مضاف إلى فاعله { رَبِّكَ}، و {عَبْدَهُ} مفعول به

---

(١) سورة مريم ١٩ الآيتان ٢،٣

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٣/٥،٢٥٣ ، روح المعاني ٣٧٨/٨-٣٩٠

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٧/٤،٤٦٨

(٤) التبيان ٨٦٦/٢ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/٤ ، البحر المحيط ٧ /٢٣٨،٢٣٩ ، الدر المصون ٥٦١/٧

لرحمة، والناصب له نفس الرحمة ، لأنها مصدر بمعنى المرة من الرَّحِم ، ويكون فاعل الذكر غير مذكور لفظاً ، والتقدير: أنْ ذكر الله رحمته عبده زكريا . (١)

ومجيء هذه الإضافات متتابعة هكذا في أعلى درجات البلاغة ، لأنها مع تتابعها لم تؤد إلى الثقل على اللسان فلم تخل بفصاحة الكلام ، عند مَنْ اشترط في الفصاحة خلوصها من كثرة التكرار وتتابع الإضافات ، ولذلك جاءت في الآية مليحة لطيفة فصيحة (٢) ، وذلك أنَّ نظم القرآن فريد وعجيب ومعجز .

يقول الشيخ عبد القاهر : قال الصاحب(٣) : إياك والإضافات المتداخلة، فإنها لا تحسن ، قال عبد القاهر : ولا شك في ثقل ذلك في الأكثر، لكنه إذا سلم من الاستكراه ملح ولطف. (٤)

وقدم الخبر لقصد الاهتمام بالرحمة وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال: رب إني ..... فرحمه ربك ، فالكلام على التقديم والتأخير .

يقول الشيخ ابن عاشور : وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، فكان في

(١) الدر المصون ٥٦١/٧ ، التبيان ٨٦٦/٢ ، إعراب القرآن وبيانه ٥٦،٥٥/٦

(٢) الإيضاح ٣٦/١-٣٨

(٣) هو الصاحب بن عباد الوزير المتوفى سنة ٣٨٥هـ

(٤) دلائل الإعجاز في علم المعاني ٧٥/١ ، الإيضاح ٣٦/١-٣٨

تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه . (١)

وعن بلاغة التقديم والتأخير يقول الإمام عبد القاهر: هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْطُر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللّفظ عن مكان إلى مكان . (٢)

وفي الإتيان بوصف الربوبية الدالة على التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير النبي ﷺ للإيذان بأن تنزيلَ السورة عليه ﷺ تكميل وتشريف له ﷺ. (٣)

وأضيفت الرحمة : إلى الفاعل وهو { رَبِّكَ } المضاف إلى ضميره ﷺ للتنويه بهما ، وإفادة تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه.(٤)

و{إذ} في قوله {إِذْ نادى} ظرف زمان للرحمة ، أي رحمة الله إياه وقت أن ناداه . (٥)

(١) التحرير والتنوير ٦١/١٦-٦٣،البحر المديد ٣١٨/٣
(٢) دلائل الإعجاز ٧٦/١،٧٧ ، علوم البلاغة ١٠٠/١
(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٣/٥،٢٥٣
(٤) التحرير والتنوير ٦١/١٦-٦٣
(٥) التبيان ٨٦٦/٢ ، الدر المصون ٥٦٣/٧ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٣٤/٨

وفي ذكر الرحمة ، والحديث عنها بالظرف : بيان مزيد لهذه الرحمة ومجيئها في صورة تكاد- لما حملت من ألطاف- تكون رحمة خاصة تستحق الذكر والتنويه . (١)

والنداء في الأصل : رفع الصوت وظهوره (٢) **، والمراد به هنا الدعاء .** (٣)

وفي قوله تعالى [نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً] جناس الاشتقاق (٤) **، حيث اشتق لفظي "نادى" و"نداء" من مادة لغوية واحدة .** (٥)

ووصف النداء بالخفي : لأنه لمَّا قدم تشريفه بالذكر والرحمة والاختصاص بالإضافة إليه فدل ذلك على كمال القرب، فقال: {نداء خفياً} أي كما يفعل المحب القريب مع حبيبه المقبل عليه

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧٢٢/٨

(٢) قال الراغب : وأصل النِّداء من النَّدَى، أي: الرُّطُوبة، يقال: صوت نَدِيٌّ رفيع والنِّدَاءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهُورُهُ، وقد يقال ذلك للصَّوْت المجرَّد، وإيّاه قَصَدَ بقوله: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً} سورة البقرة٢ الآية ١٧١ أي: لا يعرف إلّا الصَّوْت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تركيبُ الكلام ، ويقال للمركَّب الذي يُفْهَم منه المعنى ذلك، قال تعالى: {وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى} سورة الشعراء٢٦ من الآية ١٠ . المفردات ٧٩٦/١،٧٩٧

(٣) زاد المسير ١١٧/٣، روح المعاني ٣٧٨/٨-٣٩٠

(٤) جناس الاشتقاق هو: أن يجمع بين اللفظين الاشتقاق، وهو مما يلحق بالجناس مثل قوله تعالى{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ} الروم ٣٠ من الآية ٤٣ فلفظ "أقم" ولفظ "القيم" مشتقان من مادة لغوية واحدة. بغية الإيضاح ٦٤٧/٤ ،البلاغة العربية ٤٩٨/٢

(٥) صفوة التفاسير ١٩٨/٢ ، التفسير المنير ٥٠/١٦

في قصد خطاب السر الجامع بين شرف المناجاة، ولذاذة الانفراد بالخلوة . (١)

وقيل وصفه بالخفي للاحتراس (٢) **: مما يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر ويجهلون حقيقة الدخائل ، أو لئلا يلام على طلب الولد في آوان الكبر والشيخوخة ، ودفعاً للفضول الذي يطلق الألسنة بمختلف أنواع الملام وقيل احترس من مواليه الذين خافهم .**

وقيل إن خفوت صوته ناتج عن ضعفه وكبره ، حيث يخفت الصوت ويكل اللسان وتعشى العينان وتثقل الآذان ، وعليه يكون الكلام على حقيقته .

يقول الزمخشري : راعى سنة الله في إخفاء دعوته، لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص، وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة، أو أسَرَّه من مواليه الذين خافهم ،

(١) نظم الدرر ١٦٨/١٢

(٢) الاحتراس ويسمى بالتكميل : وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم نحو: {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} (سورة المائدة ٥ من الآية ٥٤) فإنه لو اقتصر على أذلة لتوهم أنه لضعفهم فدفعه بقوله: "أعزة" وسمي الاحتراس؛ لأن فيه التوقي والاحتراز عن توهم خلاف المقصود . الإيضاح ٢٠٨/٣ ، الإتقان ٢٥١/٣

أو خفت صوته لضعفه وهرمه ، كما جاء في صفة الشيخ : صوته خفات، وسمعه تارات [١]. [٢]

و أتى بلفظ (خَفِيًّا) صفة مبالغة: للدلالة على أنه بالغ في إخفاء دعائه فلا يعلمه قومه، ولأنه مناجاة لله وضراعة إليه وهو لا يلتجئ إلا إليه وحده قال تعالى: [وَٱذۡكُرۡ رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ] [٣] . [٤]

قوله تعالى: [قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا] [٥]

هذا هو النداء الذي نادى به زكريا عليه السلام ربه، وقد بدأه أولاً بهذا التذلل والتشكي إلى الله.. وفى هذا الموقف، يقف العبد من ربه الموقف الذي ينبغي أن يكونه.. فهو عبد ضعيف، فقير، ذليل، بين يدي السيد القوى العزيز.. من بيده ملكوت السموات والأرض، وهكذا ينبغي أن يكون الأدب من العبد بين يدي ربه.. وبهذا يكون في معرض من أن يؤذن له

(١) التَّارَةُ: الْحِينُ والمَرَّة وفَعَلَ ذَلِكَ تارَةً بَعْدَ تَارَةٍ أَي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَالْجَمْعُ تاراتٌ . لسان العرب ٩٦/٤ مادة (ت ور)

(٢) الكشاف ٣/٣ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/٤ ، البحر المحيط ٧ /٢٣٨،٢٣٩، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٨/٤، روح المعاني ٣٧٩/٨ ، إعراب القرآن وبيانه ٥٨/٦

(٣) سورة الأعراف ٧ من الآية ٢٠٥

(٤) زهرة التفاسير ٤٦٠٨/٩

(٥) سورة مريم الآية ٤

بالقرب من ربه ، وأن يلقى الرضا والقبول، فجملة النداء ثمان جمل والدعاء منه هو قوله [فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا]. (١)

فصلت جملة[قَالَ رَبِّ إِنِّي] عما قبلها لأنها تفسير للنداء وبيان لكيفيته فبينهما كمال اتصال.

أو لما بينهما من استئناف بياني إذ اقتضت الجملة الأولى سؤالاً هو: ماذا قال زكريا ؟ وواضح من السؤال أنه عن شيء عام غير سبب ، فبينهما : شبه كمال الاتصال . (٢)

وفي قوله: { قَالَ رَبِّ } إيجاز بالحذف حيث حذف حرف النداء للدلالة على غاية القرب، وكمال التعظيم والتنزيه، لأن النداء يتشرب معنى الأمر ، فإذا قلت (يا زيد) فمعناه أدعوك يا زيد فحذفت "يا" من نداء "الرب" ليزول معنى الأمر ، ويتمخض التعظيم والإجلال. (٣)

ووكدت الجملة بإنَّ لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها . (٤)

والوهن هو الضعف . (٥)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧٢٣،٧٢٢/٨ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٣٦/٨

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨

(٣) نظم الدرر ١٦٨/١٢ ، ، الإيضاح ١٨٩/٣، بغية الإيضاح ٣٣٨/٢ ، من أسرار البلاغة في القرآن ص ٤٥

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨

(٥) قال الفيومي : وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا مِنْ بَابِ وَعَدَ ضَعُفَ فَهُوَ وَاهِنٌ فِي الْأَمْرِ الْأَمْرِ وَالْعَمَلِ وَالْبَدَنِ وَوَهَنْتُهُ أَضْعَفْتُهُ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى فِي لُغَةٍ فَهُوَ مَوْهُونُ الْبَدَنِ وَالْعَظْمِ . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ٦٧٤/٢ الناشر: المكتبة العلمية - بيروت

وقوله تعالى : [وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي] كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم ، أي: ضعف بدني وذهبت قوتي. (١)

وإنما أسند الوهن إلى العظم : دون غيره مما شمله الوهن في جسده ليشير إلى أن العظم الذي هو سناد البدن، وموضع القوة فيه، قد أصابه الوهن فما البال بغيره ؟

يقول الزمخشري : وإنما ذكر العَظْمَ لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. (٢)

وعرَّف المسند إليه بأل الجنسية [ٱلۡعَظۡمُ] للدلالة على عموم العظام منه عليه السلام . (٣)

وذكر العظم بلفظ الواحد : لإفادة الجنس ، أي هذا الجنس الذي هو أقوى ما في بدني، وهو أصل بنائه، فكيف بغيره؟ ! ففيه دلالة على شمول الضعف لكُلِّ فردٍ منْ أفرادِهِ .

يقول الزمخشري : ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما

---

(١) البحر المديد ٣١٨/٣، ٣١٩ ، روح المعاني ٣٨٠/٨، ٣٨١

(٢) الكشاف ٤/٣ إرشاد العقل السليم ٢٥٣/٥، ٢٥٤ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/٤ ، البحر المحيط ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ، روح المعاني ٣٨٠/٨، ٣٨١

(٣) التحرير والتنوير ٦٥،٦٦/١٦ ، جواهر البلاغة ١١٧/١

تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. (١)

وإنما قال : { وَهَنَ الْعَظْمُ } ولم يقل «وهن عظمى» لأنه أبلغ فى الإبانة عن الضعف، وذهاب القوة، إذ إن القول الأول يشير إلى أنه لا عظم معه، بل لقد ذهب هذا العظم، وما بقي منه فإنه لا غناء فيه، أما القول الآخر فإنه يحدّث عن أن معه عظماً، وأنه لا زال يملكه ويحرص عليه . (٢)

وقوله [مِنِّي] متعلق بمحذوف وهو حال من العظم وهو تفصيل بعد الإجمال لزيادة التقرير، لأن العظم من حيث إنه يصدق على عظمه يفيد نسبته إليه إجمالاً . (٣)

وخرج الخبران (٤) **في قوله: [وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي] ، وقوله [وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا] ، عن المعنى الحقيقي، واستعملا لغرض إظهار الضعف وهو**

---

(١) الكشاف ٤/٣ إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/٤ ، البحر المحيط ٢٤٠،٢٣٩/٧ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧٢٣،٧٢٢/٨

(٣) الكشاف ٣/٣

(٤) يقصد المخبر بخبره إفادة المخاطب إما نفس الحكم كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم، ويسمى هذا فائدة الخبر ، أما كون المخبر عالمًا بالحكم، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك: زيد عندك ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر .

ما يسمى بالمجاز المرسل [1]، الذي علاقته اللزومية ، فزكريا عليه السلام ليس قصده إفادة الحكم أو لازمه ، فالله ﷻ عالم بهما ، وعلمه محيط بكل صغيرة وكبيرة في الكون بأسره، وإنما الغرض من الخبر إظهار ضعفه، وأنه بلغ من الوهن والكبر غاية لا أمل له بعدها في الحياة .

والعلاقة هي اللزوم إذ يلزم من إخباره بأنه قد وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً إظهار ضعفه، وأنه بحالة تدعو إلى الشفقة والرحمة ، والقرينة مقام الخطاب . [2]

وبعد ما ذكر ما دل على الضعف الحقيقي، ذكر ما يدل ظاهراً على الضعف، وهو أنه يعلوه الشيب فقال: { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا } .

والاشتعال : في الأصل هو التهاب النّار ، ويطلق على اشتعال البياض. [3]

وقد يخرج الخبر عن الغرضين السابقين إلى أغراض أخرى تستفاد بالقرائن منها إظهار الضعف والخشوع كما هنا .الإيضاح ٦٥/١،٦٦ جواهر البلاغة ٥٨٦/١

(١) المجاز المرسل: اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، كما في الجمل الخبرية المستعملة في الإنشاء لأغراض لم يوضع لها الخبر، كإظهار التحسر، أو الضعف، أو السرور، أو الشماتة . علوم البلاغة ٢٨٦/١ ، المنهاج الواضح للبلاغة ٣٠٩/٣

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/ محمد محمد أبو موسى ٨٠/١ ، المنهاج الواضح للبلاغة ٢٣/٤ ، التحرير والتنوير ٦٥،٦٦/١٦

(٣) المفردات ٤٥٧/١

وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي ، علاقته المكانية ، إذ الرأس مكان للاشتعال، والذي يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر، ويجوز أن يكون مجازاً لغوياً في لفظ {اشتعل}، إذ المراد به ظهور شيب الرأس، فاستعير الاشتعال للظهور.

وتفيد هذه الاستعارة عموم الشيء وإحاطته بجميع الرأس، كما تفيد المفاجأة في ظهور الشيء، فهو اشتعال وليس ظهورًا، وتفيد أيضًا حب زكريا عليه السلام لهذا الشيء حيث أحسَّ به إحساسًا مشرقًا مضيئًا . (١)

والشيب : بياض الشعر . (٢)

وأتى به نكرة للمبالغة في مزيد تفخيمه بالتكثير. (٣)

وعرف المسند إليه بأل فقال { الرَّأْسُ } بدلاً من الإضافة {رأسي} للدلالة على علم المخاطب بأنه رأس زكريا عليه السلام .

يقول الألوسي : واكتفى باللام عن الإضافة لأن تعريف العهد المقصود هنا يفيد ما تفيده، ولما كان تعريف {الْعَظْمُ} السابق للجنس لم يكتف به وزاد قوله {مِنِّي} وبالجملة ما أفصح هذه الجملة وأبلغها . (٤)

وفي قوله تعالى [وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا] استعارتان :

---

(١) سر الفصاحة ١١٨/١ ، خصائص التراكيب د/ : محمد أبو موسى ١٣٣/١ ، علوم البلاغة للمراغي ٢٩٧/١

(٢) المفردات ٤٦٩/١

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ ، البحر المديد ٣١٩،٣١٨/٣

(٤) روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨ ، البحر المحيط ٢٤٠،٢٣٩/٧

الأولى :استعارة مكنية حيث شبه الشيب بشواظ النار بجامع البياض والإنارة في كلٍّ ، واستعير شواظ النار للشيب بجامع البياض والإنارة، ثم حُذف المستعار منه أي : المشبه به ورُمز له بلازم من لوازمه، وهو الاشتعال على طريق الاستعارة المكنية، والقرينة هي إثبات الاشتعال للرأس ، وطرفاها هنا حسِّيَّان بوجه شبه محسوس ، فالمستعار منه هو النار، والمستعار له الشيب، ووجه الشبه هو الانبساط ومشابهة ضوء النار لبياض الشيب، وكل ذلك محسوس . (١)

والاستعارة الثانية: تصريحية تبعية في لفظ {اشْتَعَلَ} بتشبيه انتشار المبيضّ في المسودّ باشتعال النار، واستعير الاشتعال لانتشار الشيب في الشعر بجامع سرعة الانتشار مع تعذر التلافي في كل ، وهنا الطرفان حسيان والجامع عقلي .

وقد أفصح عن هاتين الاستعارتين العلامة الزمخشري مشيراً إلى مدى بلاغتهما فقال : "شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته، وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزاً ، ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثَمَّ فصحت هذه الجملة وشُهِد لها بالبلاغة " .

(١) البحر المحيط ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ، الإتقان ١٥٠/٣ ، الطراز لأسرار البلاغة ١٢٦/١

وكان للزمخشري قصب السبق في هذا الكلام ونقله عنه كثير من المفسرين . [١]

وقد جاءت الاستعارة في أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، وظهرت بلاغتها من جهات عديدة منها ما يلي:

الجهة الأولى: إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال بجميع الرأس، بخلاف ما لو قال: اشتعل شيب رأسي ، فإنه لا يؤدى هذا المعنى بحال، فاشتعل شيب رأسي وزان اشتعلت النار في بيتي، واشتعل رأسي شيباً، وزان اشتعل بيتي ناراً، والفرق كبير.

الجهة الثانية: الإجمال والتفصيل في نصب التمييز، فإنك إذا نصبت شَيْباً كان المعنى مخالفاً لما إذا رفعته، فقلت: اشتعل شيب رأسي، لما في النصب من المبالغة دون غيره.

الجهة الثالثة : تنكير قوله شيباً، لإفادة المبالغة . [٢]

---

(١)الكشاف ٤/٣ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/٤ ، البحر المحيط ٢٤٠،٢٣٩/٧ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ ، أضواء البيان ٣٦١،٣٦٠/٣ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨ ، التحرير والتنوير ٦٥،٦٦/١٦

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري ٩٨/١ تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، الإيضاح١٩٠/٣، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢٣١/٣، إرشاد العقل السليم ٢٥٣/٥ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨

وأيضاً حسنت الاستعارة هنا لإنابة التشبيه منابها ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : واعلم أن أبلغ الاستعارات ما ناب التشبيه منابها، وكلما زدت التشبيه فيها إخفاء ازدادت الاستعارة حسناً ورونقاً؛ حتى إنك تراها أعجب ما يكون ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه، وتعذر تلافيه، وفي عظم الألم في القلب به، ولأنه لم يبق إلا الخمود بعده ، فهذه الاستعارة البديعة هي التي تعجز القدرة عن الإتيان بمثلها . (١)

وقوله تعالى [وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا] معناه : أني لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي.

والشقاوة: خلاف السعادة (٢) **أو هي الحرمان من المأمول وضلال السعي .**

وجملة {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} كناية عن حصول السعادة.

---

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب ٨٤/١ المحقق: مصطفى جواد الناشر: مطبعة المجمع العلمي عام النشر: ١٣٧٥هـ ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٠٧/٢

(٢) قال الراغب : الشقاوة: خلاف السعادة وقد شقي يشقى شقوة، وشقاوة، وشقاء ، والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة، فكما أن السعادة في الأصل ضربان: سعادة أخروية، وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب . المفردات ٤٦٠/١

يقول الشيخ ابن عاشور: وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدها وهو السعادة على طريق الكناية إذ لا واسطة بينهما عرفاً ، ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجرى المثل في حصول السعادة من شيء.(١)

وأتى بوصف الرب في موضعي [قَالَ رَبِّ] ، و [بِدُعَآئِكَ رَبِّ] المنبئ عن إضافة ما فيه

صلاحُ المربوبِ، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لا سيما توسيطُه بين كان وخبرها لتحريك سلسلةِ الإجابةِ بالمبالغة في التضرّع .(٢)

وفي الآية من علم المعاني الإطناب (٣): فقد أراد زكريا عليه السلام أن يخبر بكبره وتقدم سنه، فجعل الألفاظ زائدة على المعاني لفائدة، وهي إظهار ضعفه وتأكيد الوهن؛ لأنه لو قال: (رب إني قد كبرت) لأفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط، دون ظهور الضعف، إذ قد يكون مع تقدم سنه قويّاً نشيطاً. (٤)

والإطناب من أعظم أنواع البلاغة حتى نقل عن بعضهم قوله:"البلاغة هي الإيجاز والإطناب".(٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٦٥،٦٦/١٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٤،٢٥٣/٥ ، روح المعاني ٣٨١،٣٨٠/٨

(٣) الإطناب أداء المقصود من الكلام بأكثر من عباراته لفائدة ، الإيضاح ١٧١/٣، علوم البلاغة ١٩١/١

(٤) المنهاج الواضح للبلاغة ١٣٧/٢ ، جواهر البلاغة ٢٠١/١

(٥) سر الفصاحة ٥٩/١ ،علوم البلاغة ١٨٢/١

يقول الزمخشري: كما أنه يجب على البليغ في مظان الإجمال أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يُفَصِّل ويُشبع . (١)

والكلام عن المعاني والأسرار البلاغية التي تحويها هذه الآية لا ينتهي ، فكل جملة منها بل كل كلمة من كلماتها تحتوى على لطائف وأسرار، وليس في آي القرآن المجيد حرف إلا تحته سر فضلاً عما وراء ذلك وصدق الله القائل [قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا] ، وأختم حديثي عن هذه الآية بما ذكره الإمام السكاكي حيث جمع بعض هذه اللطائف والخصائص في عشر مراتب فقال: والكلام في تلك اللطائف مفتقر على أخذ أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى، ثم النظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن وفي كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر فنقول :

١) لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى (يا ربي قد شخت) فإن الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن وشيب الرأس .
٢) ثم تركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقرير على تفصيلها في ضعف بدني وشاب رأسي.
٣) ثم تركت هذه المرتبة الثانية لاشتمالها على التصريح إلى ثالثة أبلغ وهي الكناية في وهنت عظام بدني لأن الكناية أبلغ من التصريح.
٤) ثم لقصد مرتبة رابعة أبلغ بنيت الكناية على المبتدأ فحصل أنا وهنت عظام بدني .

(١) الكشاف ٧٨/١ ، الإتقان ١٧٩/٣

٥) ثم لقصد خامسة أبلغ في التقرير أدخلت إنَّ على المبتدأ فحصل إني وهنت عظام بدني.

٦) ثم لطلب تقرير أن الواهن هي عظام بدنه قصدت مرتبة سادسة وهي سلوك طريقي

الإجمال والتفصيل فحصل إني وهنت العظام من بدني.

٧) ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به قصدت مرتبة سابعة وهي ترك توسيط البدن فحصل إني وهنت العظام مني.

٨) ثم لطلب شمول الوهن للعظام فرداً فرداً قصدت مرتبة ثامنة، وهي ترك جمع العظام إلى الإفراد وهو الذي في الآية " إني وهن العظم مني " .

٩) ثم تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهو المجاز لأن المجاز أحسن من الحقيقة، وأكثر دخولاً في البلاغة منها فحصل اشتعل شيب رأسي.

١٠)ثم عدل عن المجاز إلى الاستعارة في قوله: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً} وهى من محاسن المجاز، ومن مثمرات البلاغة . (١)

وقال العلوي بعد ذكره لكلام السكاكي السابق: والقرآن إنما صار معجزاً لكونه دالاً على تلك المحاسن والمزايا التي لم يختص بها غيره من سائر الكلام ..... فلله دَرّه من كتاب اشتمل على علوم الحكمة وضم

(١) مفتاح العلوم ٢٨٥/١ بتصرف وتلخيص، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢٣٠/٣-٢٣٢ ، الإيضاح ١٨٩/٣ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٨/٤،٤٦٩

جوامع الخطاب، وأودع ما لم يودع غيره من الكتب المنزلة من حقائق الإجمال ودقائق الأسرار المفصلة .

فانظر إلى هذا السياق المثمر المورق، وجودة هذا الرصف المعجب الموقن، كيف ترك جملة إلى جملة، إرادة للإجمال بعده لتفصيل، من أجل إيثار البلاغة حتى انتهى إلى خلاصها، وهو جوهر الآية ونظامها أوجز عبارة وأحصرها، وأظهر بلاغة وأبهرها . (١)

قوله تعالى: [وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥] (٢)

وصلت جملة [وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى] بالجملة السابقة بواو العطف لاتفاق الجملتين خبراً أو إنشاء، ووجود المناسبة بينهما وهو ما يسمى بـ التوسط بين الكمالين مع عدم المانع، فالكلام في معنى واحد هو: مقاربة الوفاة وخوف الموالي من بعده لذلك كان أدعى للاتصال.

يقول أبو السعود: (وَإِنّي خِفْتُ الموالى) عطف على قوله تعالى {إني وَهَنَ العظم} مترتبٌ مضمونه على مضمونه ، فإنَّ ضَعفَ القُوى وكِبَر السنِّ من مبادئ خوفه عليه السلام مَنْ يلي أمرَه بعد موته، ومواليه بنو عمه وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخاف أن لا يُحسِنوا خلافتَه في أمته ويبدّلوا عليهم دينَهم . (٣)

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣/٢٣٠-٢٣٢

(٢) سورة مريم ١٩ الآية ٥

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/٢٥٤ ، روح المعاني ٨/٣٨١،٣٨٢ ، التحرير والتنوير ١٦/٦٧

والموالى هم: الحواشي والعصبات من قرابته، وسموا موالي؛ لأنهم الذين يلونه على ما يترك من علم ونبوة والأموال التي تورث من بعده . (١)

والوراء (٢) **: في قوله [مِن وَرَآءِى] بمعنى بعد موتي .**

قال الألوسي : المراد منه بإجماع من علمنا من المفسرين من بعد موتي . (٣)

وحذف متعلق الظرف في [مِن وَرَآءِى] لانصراف الذهن إليه والتقدير : "خفت فعل الموالي" وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي ، أو خفت "الذين يلون الأمر" من ورائي ، ففيه إيجاز بحذف جملة . (٤)

---

(١) مجاز القرآن ٢/٢ ، الكشاف ٤/٣، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨ ، زهرة التفاسير ٤٦١١،٤٦١٠/٩

(٢) قال الراغب: إذا قيل: وراء زيد كذا، فإنه يقال لمن خلفه نحو قوله تعالى: (ومن وراء إسحاق يعقوب)[هود١١ من الآية ٧١] ، ويقال لما كان قدامه نحو: (وكان وراءهم ملك) [الكهف١٨ من الآية ٧٩] المفردات ٨٦٦/١

(٣) روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل٦/٤ ، البحر المحيط ٢٤٠/٧

(٤) الكشاف ٤/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨

ومنع الزمخشري تعلقه بـ " خِفْتُ" لفساد المعنى(١) ، وذلك لأن الخوف بعد الموت محال. (٢)

وعبَّر بالماضي : في الفعلين (خِفْتُ) ، و(وَكانَتِ) للدلالة على تقادم الخوف منه عليه السلام ، وللإشارة إلى أن العقر تمكن منها وثابت لها فلذلك حُرِم من الولد منها . (٣)

والعاقر هي: التي لا تلد من حين شبابها إلى شيبها، فالعقر بالفتح والضم العقم، ويقال عاقر للذكر والأنثى . (٤)

وعطف جملة [فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا] بالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة ، موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الأسباب العادية، واستيهابه على الوجه الخارق للعادة . (٥)

---

(١) وهذا على القراءة المتواترة ، وقرئ "شاذاً" (خَفَّتِ الْمَوَالِي)، بفتح الخاء وتشديد الفاء ، والتاء مكسورة، أي قلوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدين بعدي أو خفّت الموالي القادرون على إقامة مراسمِ الملة ومصالحِ الأمة من خفَّ القوم أي ارتحلوا مسرعين أي درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم من به تَقوَ واعتضادٌ فالظرفُ حينئذ متعلقٌ بِخَفَّتِ. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ٣٧/٢ ، الكشاف ٤/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، الدر المصون ٥٦٦/٧

(٢) الكشاف ٤/٣ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٩/٤

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٦٩/٤ ، التحرير والتنوير ٦٧/١٦

(٤) مجاز القرآن ٢/٢ ، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨

(٥) إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨

واكتفى [١] **عليه السلام هنا بذكره هذا الداع إلى الولد ، دون الإشارة إلى ذكر ما شاهده من الكرامات في جانب السيدة مريم ، اعتماداً على ذكره في سورة آل عمران .** [٢]

يقول أبو السعود: ولا يقدح فيما ذَكَر أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى [هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ] [٣].

وعدم ذكره هاهنا للتعويل على ما ذكر هنالك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هنالك للاكتفاء بذكرها هاهنا، والاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من السنن التنزيلية . [٤]

وتعلق الجارين (لِيْ) و(مِنْ لدنك) بالفعل "هب" ، فاللام صلة له، ومن لابتداء الغاية ، وإنما قدَّم (لِيْ) على (مِنْ) لأنه الأهم في غرض الداعي ، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام . [٥]

---

(١) الاكتفاء : نوع من الإيجاز وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية. البلاغة العربية ٤٩/٢

(٢) سورة آل عمران ٣ الآيات ٣٥ ـ ٤٣

(٣) سورة آل عمران ٢ من الآية ٣٨

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨ ، البحر المديد ٣١٩/٣

(٥) التحرير والتنوير ٦٧/١٦

وأضاف الظرف " لدُنْ " [1] إلى الله ﷻ للتأكيد على أنه طلب ولداً مرضياً ، من مَحْض فضلِه الواسعِ وقدرته الباهرةِ بطريق الاختراعِ لا بواسطة الأسباب العادية .

يقول الزمخشري: {مِنْ لَدُنْكَ} تأكيد لكونه ولياً مرضياً، بكونه مضافاً إلى الله تعالى وصادراً من عنده، وإلا- فهب لي وليا يرثني- كاف، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأني وامرأتي لا نصلح للولادة . [2]

و توسط الجارين (لِيْ) و(مِنْ لدنك) بين الفعل ومفعوله : لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر . [3]

قوله تعالى :[يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا] [4]

---

(١) "لدن" بمعنى عند وهي لأول غاية زمان أو مكان ، ومن الأسماء الملازمة للإضافة وتضاف إلى المفرد، وإلى الجملة . توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي ٨١٤/٣ شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، الناشر : دار الفكر العربي الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١٢٢/٣-١٢٥

(٢) الكشاف ٤/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، البحر المديد ٣١٩/٣

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٤/٥ ، روح المعاني ٣٨٢،٣٨١/٨ ، التحرير والتنوير ٦٧/١٦ ، جواهر البلاغة ١٣٦/١

(٤) سورة مريم ١٩ الآية ٦

المراد بالإرث في قوله تعالى : [يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ] إرث الشرع والعلم والنبوة، لأنّ الأنبياء لا تورّث المال، ويؤيده قوله ﷺ (إنا معاشرَ الأنبياءِ لا نورَث ما تركنا فهو صدقةٌ) (١)،

وهذا قول جمهور المفسرين .(٢)

يقول الإيجي: والمراد بالإرث النبوة والعلم، وكان زكريا من ذرية يعقوب وقد ثبت " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة " ولولا أن المراد منه هذه الوراثة الخاصة لكانت تلك الصفة أي: يرثني زائدة لا فائدة فيها ، إذ الولد يرث أباه في كل شرع . (٣)

وجملة [يَرِثُنِي وَيَرِثُ] إمَّا جواب الأمر في قوله " فهب "، يريد: فإن تهب لي وليّا يرثني ، وهذا على قراءة أبي عمرو والكسائي بجزمهما (يرثْني ، ويرثْ) ، وإمَّا أنها صفة للولي ، لأنه

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي في الفوائد ٧٢/٢ رقم ١١٧٤ تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي الناشر: مكتبة الرشد - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٢ ، وأخرجه البخاري وغيره بلفظ «لا نورث ما تركنا صدقة»: باب قول النبي ﷺ «لا نورث ما تركنا صدقة» صحيح البخاري ١٤٩/٨ رقم ٦٧٢٥

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤٧٧/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢١٢/٥ ، الدر المنثور المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ٤٨/٥ الناشر: دار الفكر – بيروت ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٦/٤

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي الصفوي، ٤٧١/٢،نشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط : الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

نكرة، فعاد الجواب عليها بالذكر وهذا على قراءة الباقين برفعهما (يَرِثُنِي وَيَرِثُ) . (١)

واختار السكاكي أن الجملتين مستأنفتان استئنافاً بيانياً لأنه يرد أنه يلزم على الوصفية أن لا يكون قد وهب لزكريا عليه السلام مَنْ وَصَفْ، لهلاك يحيى قبل زكريا – عليهما السلام – (٢). (٣)

فكأنها جواب عن سؤال : لم تطلب الولد؟ فقال مجيباً: يرثني أي لأنه يرثني ، وعليه تكون الجملة فصلت عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتصال . (٤)

وفي الآية قراءة أخرى شاذة ولكنها ترشد إلى معنى بلاغي وهي: (يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) (٥) **برفع وارث بزنة فاعل ، على أنه فاعل يرثني ، وهذا على طريقة التجريد .** (٦)

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣١٧/٢ تحقيق : علي محمد الضباع الناشر : المطبعة التجارية الكبرى ، الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٢٣٥/١ تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم الناشر: دار الشروق - بيروت ط: الرابعة، ١٤٠١ هـ

(٢) مفتاح العلوم ٣٢١/١ ، حاشية الشهاب ١٤٤/٦

(٣) قال الشهاب: ودفع هذا بأنّ الروايات متعارضة والأكثر على أنه قتل بعده. حاشية الشهاب ١٤٤/٦ ، روح المعاني ٣٨٣/٨

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٩٦/٤-٤٧١ روح المعاني ٣٨٤/٨ ، زهرة التفاسير ٤٦١٢/٩

(٥) القراءة شاذة ، ونسبها ابن جني لعلي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهم . المحتسب ٣٨/٢

(٦) التجريد: لغة إزالة الشيء عن غيره، واصطلاحاً : هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة في كمالها فيه نحو"لي من فلان صديق حميم" أي: بلغ من الصداقة مبلغاً صح معه أن يستخلص منه صديق آخر ، فقد جرد من الرجل الصديق آخر مثله متصف بصفة الصداقة . الإتقان ٣٠٧/٣ ، بغية الإيضاح ٦٠٩/٤ ، جواهر البلاغة ٣٠٨/١

أي يرثني ولي من ذلك الولي أو به فقد جرَّد من الولي ولياً ، كأنه جرده عن منافيات الوارثية بأسرها ، كما تقول رأيت منه أو به أسداً ، [١]

قال ابن جني: هذا ضرب من العربية غريب ، ومعناه التجريد ؛ وذلك أنك تريد ؛ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي منه أو به وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جَرَّدَ منه وارثاً.[٢]

وجاء بلفظ الرب متوسطاً بين مفعولي "جعل" للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه.[٣]

وقوله {رضياً } من المجاز العقلي الذي علاقته إيقاع صيغة مكان أخرى، فهو بمعنى مرضيًا، فعيل بمعنى مفعول، أي: ترضى عنه فيكون مرضياً لك . [٤]

قوله تعالى : [يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧] [٥]

---

(١) الكشاف ٥/٣ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٦/٤ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٥/٥ ، الإتقان ٣٠٧/٣ ، البحر المحيط ٢٤٢/٧، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٠/٤ ، الدر المصون ٥٦٧/٧، روح المعاني ٣٨٤/٨

(٢) المحتسب ٣٨/٢

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٥/٥ ، روح المعاني ٣٨٤/٨

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٥/٥ ، البحر المحيط ٢٤٢/٧ ، زهرة التفاسير ٤٦١٢/٩

(٥) سورة مريم ١٩ الآية ٧

هذا جوابٌ لندائه عليه السلام ووعدٌ بإجابة دعائِه، ويتضمن قولاً محذوفاً دل عليه السياق عقب دعائه عليه السلام، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقلنا له {يا زكرِيا}(١): ففيه إيجاز بالحذف .(٢)

وابتدأ الإجابة بندائه باسمه {يا زكرِيا} إدناء له، وعناية وإظهاراً لحبة واختصاصه، وتمكيناً لإجابته في ندائه الضارع . (٣)

والتبشير: الإخبار بخبر سار . (٤)

وأضاف ﷻ البشرى إلى ذاته العلية ذاكراً بضمير المتكلم العظيم فوق كل عظمة الذي لا يتقيد بأسباب الناس وعاداتهم ، بل إنه الفعال لما يريد . (٥)

وفي قوله : {اسْمُهُ يَحْيَى} دلالة على أنَّ الله ﷻ تولى تسميته بنفسه ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، تبجيلاً له وتشريفاً . (٦)

---

(١) الأكثرون من المفسرين على أنه نداء من الله تعالى لقرينة التخاطب من قوله: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) إلى قوله: (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ) ومنهم من قال: هو نداء الملك لقوله في آل عمران (فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ)[الآية: ٤٩] وجوز بعضهم الأمرين. غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، روح المعاني ٣٨٤/٨،٣٨٥

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٥/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٢١٤/٥

(٣) زهرة التفاسير ٤٦١٣/٩

(٤) قال الراغب : أَبْشَرْتُ الرجل وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ: أخبرته بسارّ بسط بشرة وجهه وذلك أنّ النفس إذا سرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر . المفردات ١٢٥/١

(٥) زهرة التفاسير ٤٦١٣/٩

(٦) غرائب التفسير وعجائب التأويل المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء٦٨٧/٢ دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، أضواء البيان ٣٦٧/٣

وفي تعيين اسمه بـ { يَحْيَى} تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام .

ونفي السَّمي [1]: في قوله تعالى [لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا] يحتمل إمّا نفي التسمية : أي لم يُسم أحد قبله بـ " يحيى" .

ويكون في تخصيصه بهذا الاسم: مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة.

وإمَّا نفي الشبيه والنظير في السمو والرفعة ، فإنه عليه السلام لم يكن قبله أحد مثله في بعض أوصافه، لأنه لم يهم بمعصية قط، وأنه ولد لشيخ فانٍ، وعجوز عاقر، وأنه كان حصورًا، ولم تكن هذه الخصال لأحد غيره . [2].[3]

وأتى بحرف الجر (من) الدال على التبعيض تخصيصاً لزمان بني إسرائيل قومه فقال: {من قبل سمياً} . [4]

---

(١) السَّمي: المسامي وَهُوَ المطاول والمفاخر، وَسمي الشَّيْء موافقه فِي اسْمه أَو نَظِيره.لسان العرب ٤٠٣/١٤ مادة(س م ا).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٢٠/٣ ، الكشاف ٥/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٥/٥ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، البحر المديد ٣٢١/٣ ، روح المعاني ٣٨٤/٨،٣٨٥

(٣) وردَّ الشنقيطي القول الثاني بقوله وقول من قال : إن معناه لم نجعل له سمياً، أي: نظيرا في السمو والرفعة غير صواب لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح، فالقول الأول هو الصواب، وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم. أضواء البيان ٣٦٧/٣ ، المحرر الوجيز ٦/٤ ، التفسير الوسيط ١٧/٩

(٤) نظم الدرر ١٧٤/١٢

قوله تعالى:[قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا](١)

فصلت جملة :[قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ] عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، حيث إنها استئناف مبنى على سؤال اقتضته جملة [يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ] فكأن سائلاً سأل: فماذا قال زكريا عندما بشَّره الله ﷻ بيحيى حينئذ ؟ ، فقيل (قال رَبّ) .(٢)

وأتى عليه السلام في ندائه بلفظ الرب للمبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل إليه ﷻ.(٣)

و [أَنَّىٰ] بمعنى : كيف ومن أين . (٤)

وخرج الاستفهام في قوله [أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ] من معناه الحقيقي إلى التعجب (٥):

---

(١) سورة مريم ١٩الآية ٨

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨

(٤) شرح شافية ابن الحاجب المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، نجم الدين ٣١١/٤ حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما، مجموعة من الأساتذة ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

(٥) من المعاني التي يخرج فيها الاستفهام عن إرادة طلب الإفهام والإعلام التعجب ويسمى استفهاما تعجبيا حين يكون صادرا من متعجب فعلا، ويكون الغرض من إيراده إثارة العجب عند من يخاطب به أو يتلقاه . البلاغة العربية ٢٦٧/١

فزكريا، عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد، فرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي يبس عظمه ونحل ، ولم يبق فيه لقاح [١] ولا جماع[٢] . [٣]

يقول الزمخشري: أي كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين، أفحين اختل السببان جميعاً أرزقه؟ [٤]

وفصل بالجارّ والمجرور (لي) بين الفعل والفاعل للاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخر

أي كيف أو من أين يحدُث لي غلامٌ . [٥]

وفي قوله[أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ] إيجاز بالحذف إذ ظاهر الكلام يوهم أنه استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز لأحد بَلْهَ [٦] النبي عليه السلام النطق بما لا يسوغ، أو بما في ظاهره الإيهام، فجاء الكلام موجزاً

---

(١) اللقاح: اسم ماء الفحل من الإبل والخيل . لسان العرب مادة (ل ق ح) ٥٧٩/٢

(٢) الْجِمَاع من كل شَيْء مُجْتَمع أَصله وكل مَا اجْتمع وانضم بعضه إِلَى بعض. المعجم الوسيط ١٣٥/١

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨٣/١١ ، تفسير القرآن العظيم ٢١٤/٥ ، التسهيل لعلوم التنزيل ٤٧٨/١

(٤) الكشاف ٦/٣

(٥) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨

(٦) (بَلْهَ) اسْم فعل بِمَعْنى كَيفَ . لسان العرب ٤٧٨/١٣ مادة (ب ل هـ)، المعجم الوسيط ٧٠/١

وتقديره: هل تعاد لنا قوتنا وشبابنا فنرزق بغلام ؟ أو هل يكون الولد لغير الزوجة العاقر؟ وإذن فالمستبعد هو مجيء الولد منهما بحالهما، ولكن الجواب أزال الإشكال إذ قيل له سيكون لكما الولد وأنتما بحالكما. (١)

وجعل نفسه هنا بالغًا الكبر، وقال في آية آل عمران: [وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ] (٢) لأن البلوغ لما كان مجازًا في حصول الوصف صح أن يسند إلى الوصف وإلى الموصوف ، ولأن الواو لا تفيد الترتيب ، فهناك ورد على الأصل وهو تقديم نقص نفسه ، وهاهنا راعى الفاصلة . (٣)

وقدَّم ذكر حال امرأتِه هنا على عكس ما في سورة آل عمران ، لِما أنه قد ذُكر حالُه في تضاعيف دعائِه، وإنما المذكورُ ههنا بلوغُه أقصى مراتبِ الكِبَر تتمةً لما ذكر قبل، وأما هنالك فلم يسبِقْ في الدعاء ذكرُ حاله فلذلك قدّمه على ذكر حال امرأتِه لما أن المسارعةَ إلى بيان قصورِ شأنه أنسبُ . (٤)

والْعِتِيُّ (٥) في الأصل : كل مبالغ من كِبَر أو كفر أو فساد . (٦)

وهو مصدر، من عتا يعتو، وأصله: عتوو، فاستثقل توالي الضمتين والواوين، فكسرت التاء، فقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم قُلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما

(١) إعراب القرآن وبيانه ٧٣/٦
(٢) سورة آل عمران ٣من الآية ٤٠
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، التحرير والتنوير ٧١/١٦
(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨
(٥) عتا : يعتو عتوا وعتيا: استكبر وجاوز الحد، وعتا الشيخ عتيا وعتيا: أسن وكبر وولى . الصحاح ٢٤١٨/٦ مادة (ع ت ا)
(٦) مجاز القرآن ٢/٢ ، جامع البيان في تأويل القرآن ١٤٩/١٨

بالسكون ، وكأنهم ما كسروا التاء في عُتِيّ بمعنى الْيُبْس إلا لدفع الالتباس بَيْنَه وبين الْعُتُوِّ الذي هو الطغيان . (١)

والمعنى : أني قد بلغتُ من أجل كِبَر السنّ جساوةً (٢) ، وقحولاً (٣) في المفاصل والعِظام أو بلغتُ من مدارج الكِبَر ومراتبه ما يسمى عِتيًّا . (٤)

وفي قوله: [وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا] استعارة مكنية ؛ حيث شبه عظامه بالأعواد اليابسة، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو العتي، وإثبات وصف الْعُتِيّ لها استعارة تخييلية . (٥)

وإنما قال زكريا عليه السلام هذا الكلام : مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران ، استعظاماً لقدرة الله تعالى واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنه من محض فضل الله تعالى ولطفه مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة . (٦)

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ٨٦٧/٢ ، الدر المصون ٥٦٩/٧، ٥٧٠ ، التحرير والتنوير ٧١/١٦/١

(٢) جسا: جسواً يبس وصلب وَغلظ وخشن وَالْمَاء جمد وَالشَّيْخ بلغ غَايَة السن . لسان العرب ١٤٧/١٤ مادة (ج س ا)

(٣) قَحَلَ: قُحولاً، وقَحْلاً: يَبِسَ جِلْدُهُ على عَظْمِه، والمُتَقَحِّلُ: الرجُلُ اليابِسُ الجِلْدِ، السَّيِّئُ الحالِ. القاموس المحيط ١٠٤٧/١

(٤) الكشاف ٦/٣ إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨

(٥) التحرير والتنوير ٧١/١٦/١

(٦) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ ، البحر المديد ٣٢١/٣ ، روح المعاني ٣٨٦،٣٨٥/٨

وأجاب الزمخشري بقوله: فإن قلت: لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت: ليجاب بما أجيب به، فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخراً كان على منهاج واحد في أنّ الله غنى عن الأسباب.(١)

قوله تعالى : [قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾] (٢)

فصلت جملة [قَالَ كَذَٰلِكَ]عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال حيث إنها مستأنفة جرت على طريقة المحاورة ، وهي جواب عن تعجبه أي إذا كان الأمر في الاستبعاد بتلك المنزلة وقد صدقت فيه فأنى يتسنى؟ فكان الجواب (قال كَذلِكَ). (٣)

والكاف في قوله[كَذَٰلِكَ] إما محلها الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره، الأمر كذلكَ، والإشارة إلى الوعد السابقِ ، أي لا محالة أن تلد الغلام المذكور، وقيل: الأمر كذلكَ أنت كبير في السن ، وامرأتك عاقر، ويكون قوله: "قال ربك" ابتداء كلام .

وإما أنها في محل نصب بـ " قال" وعليه فالإشارة بقوله «ذلك» إلى مبهم يفسره قوله: "هو علي هين" ، أي خلق الغلام علي هين .

---

(١) الكشاف ٦/٣

(٢) سورة مريم ١٩الآية ٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥ ، التحرير والتنوير ٧٢،٧١/١٦ ، إعراب القرآن الكريم المؤلف: أحمد عبيد الدعاس- أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم ٢٣٧/٢ الناشر: دار المنير ودار الفارابي - دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قول زكريا {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ } أي كيف تعطيني الغلام أبأن تجعلني وزوجتي شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة؟ فأجيب بقوله: {كَذَلِكَ} أي نهب الولد لك مع بقائك وبقاء زوجتك على حالتكما . (١)

وخرج القولُ الثاني في [قَالَ رَبُّكَ] من الأول [قَالَ كَذَلِكَ] مخرج الالتفات .

قال أبو السعود: وهذا جرياً على سنن الكبرياء لتربيه المهابة وإدخال الروعة كقول الخلفاء: أميرُ المؤمنين يرسُم لك مكان أنا أرسم (٢) (٣) .

وفي التعبير بلفظ الرب في {رَبُّكَ} تشريف لزكريا عليه السلام ، وإشارة إلى أنه ﷻ خالقه ومربيه والقائم على كل أموره، وأنه لا غرابة في أن يكون هذا من الحي القيوم .

يقول أبو السعود : ثم أُسند إلى اسم الربِّ المضاف إلى ضميرِه عليه السلام تشريفاً له وإشعاراً بعلة الحُكم فإن تذكيرَ جرَيانِ أحكامِ ربوبيتِه تعالى عليه عليه السلام من إيجاده من العدم وتصريفِه في أطوارِ الخلقِ من حال إلى حال شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به مما يقلَع أساسَ استبعاده

---

(١) الكشاف ٦/٣ ، التبيان ٨٦٧/٢ ، غرائب القرآن ٤٧٢/٤، الدر المصون ٥٧٢/٧ ، إعراب القرآن وبيانه ٧١/٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥

(٣) قلت : هذا على أنَّ القول الأول للملك أي سيدنا جبريل عليه السلام والثاني لله ﷻ ، وجمهور المفسرين كما ذكر صاحب فتحُ البيان على أن المقصود في القولين هو الله تعالى ، وهذا لسلامته عن فك النظم . فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٤٠/٨

عليه السلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالة . (١)

وفصلت جملة [هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ] عما قبلها لأنها استئناف بياني وقعت جواباً لسؤال ناشىء عن قوله {كذلك} لأن تقرير منشأ التعجب يثير ترقب السامع أن يعرف ما يبطل ذلك التعجب المقرر، وذلك كونه هيناً في جانب قدرة الله تعالى العظيمة . (٢)

ولفظ {هَيِّنٌ} فيعل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب، ولم يمتنع عن المراد، والمعنى: أني كامل القدرة على ذلك إذا أردته كان . (٣)

وقدِّم المعمول {عليَّ} على عامله {هَيِّنٌ} لإفادة الاختصاص (٤) ، بأن ما يراه عليه السلام أمراً صعباً في مقاييس القدرات البشرية ، هو بالنسبة إلى الله على وجه الخصوص هين .

ولم يُقدَّم في قوله تعالى: [وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ] (٥) مع أنَّ الكلام في سياق واحد، لأنه لا حاجة للدلالة على الاختصاص فيها ؛ إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلَّم به . (٦)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥ ، زهرة التفاسير ٤٦١٤/٩
(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥ ، التحرير والتنوير ٧٢،٧١/١٦
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، روح المعاني ٣٨٨/٨
(٤) المعمولات: كالجار والمجرور، والظرف، والمصدر، والحال ونحوها من متعلقات الفعل ، وتقديمها على العامل يفيد غالبًا الاختصاص، أي: قصر العامل المؤخر على معموله المقدم . البلاغة العربية ١/ ٣٨١ ، علوم البلاغة ١٠٧،١٠٦/١
(٥) سورة الروم ٣٠ من الآية ٢٧
(٦) البلاغة العربية ١/ ٣٨١ ، خصائص التراكيب دارسة تحليلية د/محمد محمد أبو موسى ٣٦٥/١

وقد أفصح عن هذه النكتة العلامة الزمخشري حيث قال: " فإن قلت: لم أُخرت الصلة في قوله: {وهو أهون عليه} وقُدمت في قوله: { هو على هين }؟ .

قلت: هناك قصد الاختصاص، وهو محزه[1] فقيل: هو علي هين، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما هاهنا فلا معنى للاختصاص كيف، والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى".[2]

وعلَّق ابن المنير على هذا الكلام بقوله: "كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر".[3]

وعن بلاغة هذا النوع يقول الدكتور/عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة: من شأن البليغ دائماً أن يتصرف في رصف وترتيب عناصر جملته التي ينشئها تصرفاً حكيماً وفنياً، يراعي فيه جوانب بلاغية معنوية، أو جوانب جمالية معنوية أو لفظية.

فإذا كان لدى البليغ معنى يريد الدلالة عليه ولو على سبيل الإشارة، وهذا المعنى يمكن استفادته من تقديم عنصر من عناصر جملته على عنصر آخر من عناصرها فعل ذلك، ما لم يكن ممتنعاً في قواعد اللغة العربية وضوابطها.

وفي مجال ترتيب عناصر الجمل في الكلام تظهر براعة كبار البلغاء والأدباء، وتتفاوت مراتبهم، وفوق كل القمم ترتقي جوانب الإعجاز

---

(١) أي وقته، قال ابن منظور: الحَزّ: الحِينُ وَالْوَقْتُ والحَزَّة: السَّاعَةُ . لسان العرب ٣٣٦/٥ مادة (ح ز ز)

(٢) الكشاف ٤٧٦/٣

(٣) المرجع السابق

القرآني في رصف عناصر الجملة وترتيبها، ورصف عناصر الجمل وترتيبها، كما ترتقي في كل مجال فكري وبلاغي. (١)

وفي الآية من علم المعاني الالتفات(٢) : فقد التفت من الغيبة وهو الضمير في قوله [قَالَ رَبُّكَ] إلى المتكلم وهو ياء العظمةِ في قوله [هُوَ عَلَيَّ] ، وهذا إيذان منه أولاً: بأن مدارَ كونه هيّناً عليه ﷻ هو القدرة الذاتية لا ربوبيته ﷻ له عليه السلام خاصة ، وثانياً: لجذب انتباه السامع وإيقاظه لهذا المقطع المهم من الكلام . (٣)

والالتفات كما قال المراغي: فن من البلاغة، ملاكه الذوق السليم، والوجدان الصادق، ويلقب "بشجاعة العربية" لأن فيه ورود الموارد الصعبة واقتحام مضايق الأساليب. (٤)

وذكر الزمخشري أنَّ وجه حسنه: أن ذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية وتجديداً لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، ومن ثم قيل : لكل جديد لذة . (٥)

---

(١) البلاغة العربية ١/ ٣٨١

(٢) الالتفات هو: التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، وهو خروج بالكلام عن مقتضى الظاهر . الإيضاح في علوم البلاغة ٨٦/٢ بغية الإيضاح ١٣٨/١

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥ ، التحرير والتنوير ٧٢،٧١/١٦

(٤) علوم البلاغة ١٤٢/١

(٥) الكشاف ١٤/١ ، الإتقان ٢٨٩/٣

والمراد من قوله تعالَى: [وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا] ابتداء خلق البشر، وهو الواقعُ

إثرَ العدم المحضِ لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالدِ المعتاد .

يقول أبو السعود : وإنما لم يُنسَبْ ذلك إلى آدم عليه السلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته في إزالة الاستبعادِ بقياس حال ما بُشّر به على حاله السلام ، لتأكيد الاحتجاج به وتوضيح منهاج القياس.

حيث نبه على أن كلَّ فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه السلام من العدم إذ لم تكن فطرتُه البديعة مقصورةً على نفسه بل كانت أُنموذَجاً منطوياً على فطرية سائرِ آحاد الجنس انطواءً إجمالياً مستتبِعاً لجريان آثارها على الكل، فكان إبداعه السلام على ذلك الوجه إبداعاً لكل أحد من فروعه كذلك ، فكأنه قيل {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ} في تضاعيف خلقِ آدم ولم تكن إذ ذاك شيئاً أصلاً بل عدماً بحتاً ونفياً صِرْفاً . (١)

وللمبالغة في الإيجاز حذف النون من (تكن) في قوله [وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا]، وذلك لأنه لما كان السلام شديد التشوف لما يلقى عليه من المعنى في هذه البشرى، أوجز له حتى بحذف النون وليثبت أنه ليس له من ذاته إلا العدم المحض، وينفي أن يكون له من ذاته وجود ولو على أقل درجات الكون فقال: {تك شيئاً } . (٢)

(١) إرشاد العقل السليم ٢٥٧/٥ ، روح المعاني ٣٨٨/٨

(٢) المرجع السابق

قوله تعالى:[قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠] (١)

يخبر الله ﷻ في هذه الآية أنَّ زكريا عليه السلام طلب علامة ودليلاً على وجود ما وُعِد به، لتستقر نفسه ويطمئن قلبه بما وعده به ربه . (٢)

وفصلت جملة [قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ] عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً جاءت جواباً لسؤال اقتضته الآية السابقة هو: ماذا قال زكريا ؟ فكان الجواب : {قال رب} .

وفي قوله {قالَ رَبِّ} إيجاز بالحذف حيث حذف حرف النداء للدلالة على غاية القرب ، وكمال التعظيم والتنزيه .

وتوسط الجار والمجرور"لي" بين الفعل ومفعوله، لإفادة التخصيص، والاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر . (٣)

والآية: العلامة التي تدل على الشيء ، فيراد أنه علامة فيما يوصف به، يستدل بها عليه. (٤)

---

(١) سورة مريم ١٩الآية ١٠

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ١٥١/١٨، تفسير القرآن العظيم ٢١٥/٥

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٥٨/٥ ، روح المعاني ٣٩٠/٨

(٤) لسان العرب ٦٢/١٤ مادة (أ ي ا)، الفاخر المؤلف: المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب ٢٤٢/١ تحقيق: عبد العليم الطحاوي مراجعة: محمد علي النجار الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي الطبعة: الأولى، ١٣٨٠ هـ

والمعنى: اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به ، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح سويّ الخلق، ما بك خرس، ولا مرض يمنعك من الكلام. (١)

ودل ذكر الليالي في هذه السورة ، والأيام في سورة آل عمران(٢) **، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن .** (٣)

قال الألوسي: والنكتة في الاكتفاء بالليالي هنا وبالأيام ثَمَّة، على ما قيل أن هذه مكية سابقة النزول وتلك مدنية والليالي عندهم سابقة على الأيام لأن شهورهم وسنيهم قمرية إنما تعرف بالأهلّة . (٤)

والسَّوِيُّ : يقال فيما يصان عن الإفراط ، والتّفريط من حيث القدر والكيفيّة. (٥)

وأتى بلفظ "سَوِيًّا" لإفادة كون انتفاء الكلام بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض ، أي يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه ، حال كونك سويّ الخلق سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس، فهو حال من فاعل {تُكَلّمَ} . (٦)

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ١٥١/١٨ ، معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٣٢١/٣ ، الكشاف ٧/٣

(٢) في قوله تعالى (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا) سورة آل عمران ٣ من الآية ٤١

(٣) الكشاف ٧/٣ ، محاسن التأويل ٨٧/٧

(٤) روح المعاني ٣٩٠/٨ ، محاسن التأويل ٨٧/٧

(٥) المفردات ٤٤٠/١

(٦) إرشاد العقل السليم ٢٥٨/٥ ، روح المعاني ٣٩٠/٨

والحكمة في منعه من الكلام : لينحصر كلامه في الشكر والذكر لله ﷻ في تلك الأيام.

يقول البقاعي : وجعلت الآية الدالة عليه سكوتاً عن غير ذكر الله دلالة على إخلاصه وانقطاعه بكليته إلى الله دون غيره . (١)

قوله تعالى: [فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾] (٢)

الفاء في (فخرج و فأوحى) استئنافية، وعطف الفعلين بالفاء للدلالة على الترتيب مع التعقيب.(٣)

وفصلت جملة [فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ] عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً، فكأن سائلاً سأل: فماذا صنع زكريا عليه السلام بعد ما أخذ الآية من ربه؟ فكان الجواب: {فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ } .

ولتضمين (٤) **" خَرَجَ " معنى " طلع " عُدِّي بـ (على) .** (١)

---

(١) نظم الدرر ١٧٧/١٢، البحر المديد ٣٢٢/٣

(٢) سورة مريم ١٩الآية ١١

(٣) إعراب القرآن وبيانه ٧٢/٦ ، إعراب القرآن الكريم للدعاس ٢٣٧/٢، الموجز في قواعد اللغة العربية المؤلف : سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني ٣٦٢/١ الناشر : دار الفكر - بيروت - لبنان ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

(٤) التضمين هو: إعطاء الشيء معنى الشيء ويكون في الحروف والأفعال والأفعال والأسماء، أما الأفعال فأن يضمن فعل معنى فعل آخر فيكون فيه معنى الفعلين معاً وذلك بأن يأتي الفعل متعديا بحرف ليس من عادته التعدي به فيحتاج إلى تأويله أو تأويل الحرف ليصح التعدي به والأول تضمين الفعل والثاني تضمين الحرف، فتكون الجملة بهذا التضمين بقوة جملتين، دل على إحداهما الكلمة المذكورة التي حذف ما يتعلق بها،

والمحراب : مكان الصلاة . (٢)

وفصلت جملة [فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ] عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال فهي مستأنفة أيضاً.

ومعنى [فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ] أي: أومأ وأشار إليهم، ويؤيده قوله تعالى: [ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا] (٣)(٤).

والتسبيح في قوله [أَن سَبِّحُوا۟] قيل المراد به الصلاة ، ويكون من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية ، حيث أطلق الجزء وهو التسبيح ، وأراد الكل وهو الصلاة . (١)

ويقدر معناه ذهنا، ودل على الأخرى الكلمة التي جاءت بعدها المتعلقة بالكلمة المحذوفة الملاحظ معناها ذهنا.نحو{عينا يشرب بها عباد الله} الإنسان ٧٦ من الآية ١٨، فيشرب إنما يتعدى بمن فتعديته بالباء إما على تضمينه معنى "يروي" و"يلتذ" أو تضمين الباء معنى"من". الإتقان ١٣٦/٣، البلاغة العربية ٤٩/٢

(١) التحرير والتنوير ٧٤/١٦

(٢) قال الراغب: سمّي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: سمّي بذلك لكون حقّ الإنسان فيه أن يكون حريبا من أشغال الدنيا ومن توزّع الخواطر، وقيل: الأصل فيه أنّ محراب البيت صدر المجلس، ثم اتّخذت المساجد فسمّي صدره به، وقيل: بل المحراب أصله في المسجد، وهو اسم خصّ به صدر المجلس، فسمّي صدر البيت محراباً تشبيها بمحراب المسجد، وكأنّ هذا أصح . المفردات ٢٢٥/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٨٤/١١

(٣) سورة آل عمران ٣ من الآية ٤١

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري ٢٣٢/١ المحقق: سعيد اللحام ، الكشاف ٧/٣، إرشاد العقل السليم ٢٥٨/٥

قال الرازي: اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز في اللغة يقال: سبحة الضحى أي صلاة الضحى . (٢)

وقيل التسبيح على حقيقته وهو التنزيه .

قال الألوسي : والمراد بالتسبيح الصلاة مجازاً، و{بُكْرَةً وَعَشِيًّا} ظرفا زمان له، والمراد بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر .

وقال بعض: التسبيح على ظاهره وهو التنزيه أي نزهوا ربكم طرفي النهار، ولعله عليه السلام كان مأمورا بأن يسبح شكراً ويأمر قومه.(٣).(٤)

وفصلت جملة [أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا] عما قبلها لأنها تفسيرية ، وقعت بعد جملة فيها معنى القول ، فبينها وبين سابقتها كمال الاتصال . (٥)

---

(١) ذلك أنَّ المُراعى في المجاز الكلمة التي تكون في الأسلوب، فالتسبيح جزء من الصلاة .

(٢) مفاتيح الغيب ٥١٦/٢١، غريب القرآن ٢٣٢/١ ، الكشاف ٧/٣، إرشاد العقل السليم ٢٥٨/٥

(٣) روح المعاني ٣٩١/٨ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٧/٤ ، البحر المديد ٣٢٢/٣

(٤) وذكر الألوسي نقلاً عن صاحب التحرير والتحبير: أنه إنما خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول: سبحان الله تعالى سبحان الخالق جل جلاله فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح اهـ . روح المعاني ٣٩١/٨

(٥) الكشاف ٧/٣، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، التحرير والتنوير ٧٤/١٦ ، إعراب القرآن وبيانه ٧٢/٦

قوله تعالى: [يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾] (١)

بعد أن ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يهبه غلاماً ، وأنه أجاب طلبه وجعل له أمارة يعلم منها وقت الحمل به .

ذكر هنا أنه بعد أن ظهر ذلك المولود إلى عالم الوجود وترعرع ونما، أمره بالجد والعمل لطاعته، وجعله برّاً بوالديه، لا يعصي أوامر ربه، ولا يتعالى على قبول الحق . (٢)

<u>وفي قوله {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}: إيجاز بحذف أكثر من جملة</u>، حيث أغفل القرآن الكريم الحديث عن مجيء الغلام ، ونشأته ، وترعرعه ، وذلك لأن مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه ، ولعدم تعلق الغرض به ، والسياق يدل عليه . (٣)

يقول أبو السعود :(يَا يحيى) استئناف طُويَ قبله جملٌ كثيرةٌ مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعدِ الكريم أي قلنا يا يحيى..... (٤)

<u>والمقصود بـ الكتاب:</u> التوراة ، ومعنى أخذه بقوة : أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد.(١)

---

(١) سورة مريم ١٩ الآيات ١٢-١٥

(٢) تفسير المراغي ٣٨/١٦

(٣) المثل السائر /٨٤ ، و ٢٢٩/٢ ، من أسرار البلاغة في القرآن ص ٤٨ ، التحرير والتنوير ٧٦،٧٥/١٦

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤ ، روح المعاني ٣٩١/٨ ، البحر المديد ٣٢٣/٣

والمراد بالأخذ: إمَّا الأخذ الحسي.

وإمَّا الأخذ: من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغي، وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به، والإحجام عن المنهي عنه . (٢)

أو أنَّ الأخذ بمعنى الفهم والتدبر ويكون في الكلام استعارة ، حيث شبه الأخذ بالفهم ، ثم اشتق من الأخذ بمعنى الفهم خذ بمعنى افهم وتدبر على سبيل الاستعارة التبعية .

يقول الشيخ ابن عاشور: والأخذ: مستعار للفهم والتدبر، كما يقال: أخذت العلم عن فلان، لأن المعتني بالشيء يشبه الآخذ . (٣)

وأتى ﷻ بحرف النداء الموضوع للبعيد إشارة إلى بعد منزلته ، وعلو مكانته عليه السلام .

وفي ندائه له باسمه دلالة على محبته وقربه منه ﷻ .

يقول أبو زهرة: ناداه سبحانه بالبعيد إعلاءً له وتشريفاً، وناداه باسمه محبة له وتقريباً. (٤)

وعطف جملة [وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا] على ما قبلها للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع لاتفاقها معها في الخبرية لفظاً ومعنى ، وليس

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن١٨/١٥٥، الكشاف ٣/٧

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/٤٧٢ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ٨/١٤٢

(٣) التحرير والتنوير ١٦/٧٥،٧٦

(٤) زهرة التفاسير ٩/٤٦١٧

هناك ما يمنع من العطف، حيث إنها معطوفة على جملة القول المحذوفة، أي قلنا: يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم . (١)

والْحُكْمَ: قيل: المراد به النبوة، وقيل فهم التوراة والفقه في الدين. (٢)

قوله تعالى: [وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾] (٣)

الحنان في الأصل: الارتياح والاشتياق(٤) **، وهو هنا بمعنى الرحمة، أي: رحمةً وتعطفاً وشفقة لأبويه وغيرهما ، وقيل: حناناً من الله عليه.** (٥)

وفي قوله تعالى: {وَحَناناً} استعارة : حيث شبه الارتياح والاشتياق بالرأفة والرحمة ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحنان على سبيل الاستعارة المكنية .

يقول الزمخشري: وحنّ: في معنى ارتاح واشتاق، ثم استعمل في العطف والرأفة، وقيل لله «حنَّان» كما قيل «رحيم» على سبيل الاستعارة.(١) **الاستعارة.**(١)

---

(١) التحرير والتنوير ٧٦،٧٥/١٦

(٢) الكشاف ٧/٣، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٢/٤، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٤٢/٨

(٣) سورة مريم ١٩ الآية١٣

(٤) لسان العرب ١٢٩/١٣ مادة (ح ن ن)

(٥) معاني القرآن للفراء ١٦٣/٢تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة ط : الأولى، مجاز القرآن ٢/٢ ، الكشاف ٨/٣، غرائب القرآن ٤٧٣/٤، أضواء البيان ٣٧٩/٣

وأتى بلفظ {حَناناً} منوناً : لإفادة التفخيم والتعظيم .

وقوله {وَحَناناً} أبلغ من (ورحمناه) ،لإفادته من التنوين الفخامة الذاتية، ومن الجار والمجرور الفخامة الإضافية .

قال أبو السعود: وتنوينه للتفخيم وهو التحنّن والاشتياق، و{مِنْ} متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه كائنة من جنابنا، أو رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرهما . (٢)

وفي المراد من الزكاة أقوال: فقيل الطهارة من الدنس والذنوب والآثام، وقيل البركة ، وقيل الصدقة ، والتقدير: صدقةً تصدقنا به على أبويه. (٣)

ومعنى{ وَكانَ تَقِيًّا} مطيعاً متجنباً المعاصي وقد جاء في الحديث: أنه " ما عمل سيئة قط ولا هم بها " (٤)

وأتى بالفعل (كان) في وصفه بالتقوى للدلالة على تمكنه من هذا الوصف. (٥)

قوله تعالى: [وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤] (٦)

---

(١) الكشاف ٨/٣ ، الدر المصون ٥٧٤/٧ ، روح المعاني ٣٩٢/٨

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥، روح المعاني ٣٩٢/٨

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن١٥٩/١٨ ، زاد المسير ١٢٣/٣ ، تفسير القرآن العظيم ٢١٧/٥ ، أضواء البيان ٣٧٩/٣

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢١٨/١٢ رقم ١٢٩٣٨ دار النشر: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة الطبعة: الثانية

(٥) التحرير والتنوير ٧٦/١٦

(٦) سورة مريم ١٩ الآية ١٤

عطف قوله تعالى [وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ] على قوله {وكان تقياً} فيفيد ما يفيده من تَمَكُّن هذا الوصف منه عليه السلام .

ومعنى: [وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا] أي لم يكن متكبراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له ، أو متطاولاً على الخلق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. (١)

قال الراغب: والجبّار في صفة الإنسان: يقال لمن يجبر نقيصته بادّعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم.(٢)

والتعبير بصيغة المبالغة في{ جَبَّاراً} للدلالة على أن المنفي الجُبِلَ(٣) عليها، وما دونها يذهبه الله بغسل القلب أو غيره . (٤)

ونفي العصى معناه : أنه لا يعصي ربه، ولا والديه. (٥)

و{عَصِيّاً} صيغة مبالغة يعني : كثير العصيان، على وزن فعول، والأصل: عصوي ، كصبور، ويجوز أن يكون على وزن فعيل ، والوزنان من صيغ المبالغة . (٦)

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٣/٤، أضواء البيان ٣٨٠/٣، ٣٨١ ،فتحُ البيان ١٤٥/٨ ، روح المعاني ٣٩٣/٨

(٢) المفردات ١٨٤/١

(٣) قال ابن منظور: جُبِلَ الإنسانُ عَلَى هَذَا الأَمر أَي طُبِع عَلَيْهِ. وجِبْلَة الشَّيْءِ: طبيعتُه وأَصلُه وَمَا بُنِيَ عَلَيْهِ. لسان العرب ٩٨/١١ مادة (ج ب ل)، المعجم الوسيط ١٠٥/١

(٤) نظم الدرر ١٨٠/١٢

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن ١٦٠/١٨ ، روح المعاني ٣٩٣/٨

(٦) البحر المحيط ٢٤٦/٧ ، الدر المصون ٥٧٥/٧

والمبالغة في الصفتين منصرفة إلى النفي لا إلى المنفي ، أي لم يكن جباراً ، ولا عاصياً بالمرة . (١)

والسلام في قوله تعالى: [وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾] (٢)

إما بمعنى : السلامة والآمان، والمعنى: {وسلام عَلَيْهِ} من الله ﷻ {يَوْمَ وُلِدَ} من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم {وَيَوْمَ يَمُوتُ} من عذاب القبر {وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً} من هول القيامةِ وعذاب النار . (٣)

ويكون كناية عن عناية الله ﷻ له في هذه الأحوال . (٤)

وإما أن يكون السلام بمعنى التحية، وهو ما رجحه ابن عطية حيث قال: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلَّم الله عليه وحيَّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة، وقلة الحيلة وعظيم الهول، والفقر إلى الله تعالى . (٥)

---

(١) روح المعاني ٣٩٣/٨ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٤٥/٨ ، التحرير والتنوير ٧٧/١٦

(٢) سورة مريم ١٩ الآية ١٥

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن ١٦٠/١٨ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥

(٤) محاسن التأويل ٨٨/٧ ، التحرير والتنوير ٧٧/١٦

(٥) المحرر الوجيز ٨/٤ ، روح المعاني ٣٩٣/٨ ، أضواء البيان ٣٨١،٣٨٠/٣

وعبَّر بالجملة الاسمية في قوله {وَسَلامٌ عَلَيْهِ} مع أنها معطوفة على الفعلية في قوله {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} لإفادة الثبوت والدوام .

يقول الألوسي نقلاً عن الطيبي " وهذه الجملة – {وَسَلامٌ عَلَيْهِ}– عطف من حيث المعنى على {آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ} كأنه قيل وأتيناه الحكم صبياً وكذا وكذا وسلمناه، أو سلمنا عليه في تلك المواطن فعدل إلى الجملة الاسمية لإرادة الدوام والثبوت ".(١)

والمراد باليوم : مطلق الزمان الواقع فيه تلك الأحوال.

والتعبير بالفعل المضارع في { يَمُوتُ} لاستحضار الحالة التي مات فيها في ذهن المتلقي. (٢)

وأتى بلفظ { حَيًّا} وإن كان المبعوث هو المُعاد إلى حال الحياة، للدلالة على كونه من الشهداء وهم أحياء، لقوله تعالى: [بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩] (٣). (٤)

واستظهر النيسابوري: أنه أراد ويوم يجعل حياً فوضع الأخص موضع الأعم تأكيداً. (٥)

وخَصَّ الله ﷻ هذه الأوقات الثلاثة بالذكر لأن من سَلِمَ فيها سَلِمَ في غيرها لأنها أصعب، فهي أحوج إلى الرعاية من غيرها .

---

(١) روح المعاني ٣٩٣/٨

(٢) التحرير والتنوير ٧٧/١٦

(٣) سورة آل عمران ٣ من الآية ١٦٩

(٤) البحر المحيط ٢٤٩/٧ ، روح المعاني ٣٩٣/٨

(٥)غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٣/٤

روى الطبري عن سفيان بن عيينة أنه قال: أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم.[1]

(١) جامع البيان في تأويل القرآن١٦١/١٨ ، تفسير القرآن العظيم ٢١٨/٥ ، نظم الدرر ١٨٠/١٢ ، التفسير الوسيط ٢٢/٩

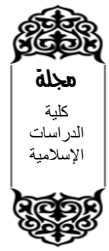
مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

المبحث الثاني

الخصائص البلاغية في الآيات التي تتحدث عن:

قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [1]

هذه الآيات شديدة الصلة والمناسبة للآيات السابقة ، ذلك أنه لما ذكر ﷻ قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكياً طاهراً مباركاً وكان هذا مما يتعجب منه ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى -عليهما السلام -، منها من غير أب ، وهو أعظم في الغرابة والعجب ، فبين القصتين مناسبة ومشابهة ؛ ولهذا ذكرهما في سورة آل عمران[2]، وهاهنا، وفي سورة الأنبياء[3]، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر. [4]

---

(١) سورة مريم ١٩ الآيات ١٦-٢١

(٢) سورة آل عمران ٣ الآيات ٣٥ - ٤٣

(٣) سورة الأنبياء ٢١ الآيات ٨٩ - ٩١

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢١٨/٥ ، البحر المحيط ٢٤٧/٧ ، تفسير المراغي ٤٠/١٦

عطفت جملة [وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ] على جملة [ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ] [1] ، وهو من عطف القصة على القصة، ولهذا لم يُراعِ حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية .[2]

وقيل: إنَّ هذه ابتداء قصة ليست من الأولى، وجملة { واذكر في الكتاب} كلام مستأنف خوطب به النبيﷺ، وأمر بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك [3]. [4]

والانتباذ : [5] هو: الاعتزال والتنحي . [6]

وفي التعبير بقوله ﷻ [إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا] إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه الطرح والرمي، فكأنها ألقت بنفسها في هذا

---

(١) سورة مريم ١٩ الآية ٢

(٢) التحرير والتنوير ٧٩،٧٨/١٦

(٣) المقصود بالاشتباك هنا صلة الرحم حيث كان زكريا عليه السلام زوج خالتها ، يقول ابن منظور: الشُّبْكة: الْقَرَابَةُ وَالرَّحِمُ، واشتباكُ الرَّحِمِ وَغَيْرِهَا: اتِّصَالُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، والرَّحِمُ مُشْتَبِكة، وَقَالَ أَبو عُبَيْدٍ: الرَّحِمُ المُشْتَبِكة الْمُتَّصِلَةُ، وَيُقَالُ: بَيْنِي وَبَيْنَهُ شُبْكة رَحِمٍ، وَبَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شُبْكَةُ نَسَبٍ أَي قَرَابَةٍ. لسان العرب ٤٤٨/١٠ مادة (ش ب ك)

(٤) المحرر الوجيز ٨/٤ ، إرشاد العقل السليم ٢٦٠،٢٥٩/٥ ، روح المعاني ٣٩٥،٣٩٤/٨

(٥) قال الراغب: النَّبْذُ: إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به، ولذلك يقال: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْل الخَلِق، وَانْتَبَذَ فلان: اعتزل اعتزال من لا يقلّ مبالاته بنفسه فيما بين الناس قال تعالى: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا) سورة مريم ١٩ الآية٢٢. المفردات ٧٨٨/١

(٦) مجاز القرآن ٣/٣

المكان لتختلي للعبادة والطاعة، والتقرب إلى الله ﷻ بصالح الأعمال . (١)

وأتى بالظرف " إذ " للدلالة على أنَّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه، فهو بدل اشتمال من {مَرْيَمَ} ، لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها . (٢)

وفي هذا الإبدال تفخيم لشأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه ، وتنويه بشأنها، وذلك بإفساح مكان لها في القرآن الكريم، تذكر فيه، مع من يذكر من عباد الله المخلصين . (٣)

ولتضمين {انتبذت} معنى أتت تعدت للمفعول به { مَكاناً شَرْقِيًّا } ، بعد مجيء المتعلق وهو الجار والمجرور { من أهلها} .

يقول أبو السعود : وقوله { مَكاناً شَرْقِيًّا } مفعول لـ {انتبذت} باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان ، وهو السر في تأخيره عنه أي اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكاناً شرقياً . (٤)

وأتى بلفظ { مَكاناً} نكرة : إبهاماً له لعدم تعلق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالاً في المقصود من القصة . (٥)

ووصف المكان بالشرقي : لأنه كان مما يلي بيت المقدس أو من مشرقة الدار التي تظلها الشمس ، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا

(١) التفسير الوسيط ٢٤،٢٣/٩

(٢) الكشاف ٩٧/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٦٠،٢٥٩/٥

(٣)غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٧/٤ ، التفسير القرآني للقرآن ٧٣٠/٨ ،روح المعاني ٣٩٥،٣٩٤/٨

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٦٠،٢٥٩/٥ روح المعاني ٣٩٥،٣٩٤/٨

(٥) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

يعظمون جهة الشرق من حيث تطلع الشمس، وعن ابن عباس: اتخذت النصارى الشرق قبلة لميلاد عيسى عليه السلام . (١)

يقول الشيخ ابن عاشور: فذكر كون المكان شرقياً نكتة بديعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل . (٢)

قوله تعالى:[فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾] (٣)

فصلت جملة [فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا] عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال، حيث إنها بمثابة جواب لسؤال اقتضته جملة {إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} فكأن سائلاً سأل : فماذا صنعت بعد ما ابتعدت عن أهلها؟ فأجيب بقوله {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً.... } .

وكذلك الفصل بين جملتي [فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا] ، و [فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا] .

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ١٦٢/١٨ ، مفاتيح الغيب ٥٢٠/٢١ ، الجامع لأحكام القرآن٩٠/١١، البحر المحيط ٢٤٧/٧

(٢) التحرير والتنوير ٧٩،٧٩/١٦

(٣) سورة مريم ١٩ الآية ١٧

والمراد بقوله [رُوحَنَا] جبريل عليه السلام ، وهو رأي جمهور المفسرين(١).(٢)

وإضافته إلى ضمير الله ﷻ تشريفاً وكرامة له ، كبيت الله تعالى.(٣)

وفي التعبير بقوله [رُوحَنَا] استعارة حيث شبه جبريل عليه السلام بالروح لشدة الحاجة إليه ، فكما أنَّ الجسد يحيا بالروح ، كذلك الدين والرسالة تحيا بجبريل عليه السلام ، ثم حذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

يقول الزمخشري: الروح: جبريل، لأنّ الدين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً ، كما تقول لحبيبك: أنت روحي . (٤)

---

(١) زاد المسير ١٢٣/٣ ، تفسير القرآن العظيم ٢٢٠/٥ ، روح المعاني ٣٩٤/٨،٣٩٥

(٢) وقيل المراد بالروُحُ عيسى عليه السلام، لأنه روح من الله ﷻ ، وهذا قاله الزجاج وغيره ، ويبعده قوله تعالى بعده (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) . معاني القرآن وإعرابه للزجاج٣٢٢/٣ ، زاد المسير ١٢٣/٣، روح المعاني٣٩٤/٨

(٣) النكت والعيون ٣٦٢/٣ ، الجامع لأحكام القرآن٩٠/١١ ، روح المعاني ٣٩٤/٨،٣٩٥

(٤) الكشاف ٩٧/٣ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٧/٤ ، روح المعاني ٣٩٤/٨،٣٩٥

ومعنى {تَمَثَّلَ} : تصور . (١)

والسوى من البشر : من استوت أخلاقه وخِلْقَتُهُ عن الإفراط والتفريط . (٢)

وإنما تمثل لها جبريل عليه السلام في صورة بشر سوي، لتستأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته، ولو بدا لها في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، لفزعت منه ولم تستطع مكالمته(٣)

قوله تعالى: [قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾] (٤)

فصلت جملة {قالَتْ ...} عما قبلها لأنها مستأنفة (٥) **استئنافاً بيانياً، وقعت جواباً لسؤال تقتضيه الجملة السابقة ، فكأن سائلاً سأل وقال: فماذا قالت بعد أن تصور لها جبريل عليه السلام ؟ ، فكان الجواب: {قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ} .**

ووكدت الجملة الخبرية {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ} بـ (إِنَّ) لتأكيد مضمون الكلام ، والمعنى: أنها أخبرته بأنها جعلت الله معاذاً لها منه، أي جعلت جانب الله ملجأً لها مما همَّ به وهذه موعظة له . (٦)

---

(١) قال الراغب : أصل المُثُولِ: الانتصاب، والمُمَثَّلُ: المصوّر على مثال غيره، يقال: مَثُلَ الشيءُ، أي: انتصب وتصوّر، والتِّمْثَالُ: الشيء المصوّر، وتَمَثَّلَ كذا: تصوّر، قال تعالى: {فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا} . المفردات ٧٥٨/١

(٢) المرجع السابق ٤٤٠/١

(٣)غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٧٧/٤ ، التفسير الوسيط ٢٤،٢٣/٩

(٤) سورة مريم ١٩ الآية ١٨

(٥) الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢٨٨/١٦

(٦) التحرير والتنوير ٧٩،٧٩/١٦

وخَصَّت صفة الرحمن بالذكر دون غيرها من صفات الله ﷻ لقصد المبالغة، لأنها أرادت أن يرحمها الله ﷻ ويدفعه عنها ، وفيه تذكير له بالرحمة ليرحم ضعفها وعجزها ، إذ من شأن الإنسان التقي أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

يقول أبو السعود: وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها . (١)

وحذف جواب الشرط من قوله تعالى {إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}، لدلالة السياق عليه والتقدير : فإني عائذة منك، أو فاخرج عني، أو فستتعظ بتعويذي باللهِ منك، ففيه إيجاز بالحذف . (٢)

وقيل هو للمبالغة أي: إن كنت تقيًّا فأعوذ منك، فكيف إذا لم تكن تقيًّا متورعًا؟! (٣)

وفي تعليقها الاستعاذة على شرط تقواه دلالة على أنّ الاستعاذة لا تنفع ولا تجدي إلا عند من يتقي الله ﷻ ، أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه، وتحفل (٤) **الاستعاذة به فإني عائذة به منك .** (٥)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦٠/٥ ، روح المعاني ٣٩٦،٣٩٥/٨ ، التحرير والتنوير ٧٩،٧٩/١٦ ، التفسير الوسيط ٢٤،٢٣/٩

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٢٣/٣ ، الكشاف ٣٩/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٦٠/٥ ، البحر المحيط ٢٤٨/٧

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٧/٤ ، تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن ٤٧٥/٢

(٤) الحَفْل: المُبَالاة، وحفل بالشَّيْء وَالْأَمر وَبِه عني وبالى . لسان العرب١٥٩/١١ ، المعجم الوسيط١٨٦/١

(٥) الكشاف ٣٩/٣ ، البحر المحيط ٢٤٨/٧

قال الفخر: وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله: [وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾] (١) أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يُخشى في حال دون حال . (٢)

وذكر الألوسي نقلاً عن الطيبي في الكشف : أنه أشار إلى أن وجه هذا الشرط مع أن الاستعاذة بالرحمن إن لم يكن تقياً أولى ، أن أثر الاستجارة بالله تعالى أعنى مكافَّته وأمنها منه إنما يتم ويظهر بالنسبة إلى المتقي... ، والحاصل أن التقوى لم تجعل شرط الاستعاذة بل شرط مكافَّته وأمنها منه وكَنَّت عن ذلك بالاستعاذة بالله تعالى حثاً له على المكافَّة بألطف وجه وأبلغه وإن من تعرض للمستعيذ به فقد تعرض لعظيم سخطه.(٣)

وفي التعبير بالجملة الشرطية {إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}، والإتيان بحرف الشرط (إن) المفيدة للشك في تقواه دون (إذا) قصد إلى تهييج خشيته ، كقول القائل: أن كنت مؤمناً فلا تظلمني. (٤)

وأتى بالفعل كان ماضياً في قوله{ كُنْتَ }، للدلالة على كون التقوى مستقرة فيه، وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحث على العمل بتقواه . (٥)

---

(١) سورة البقرة ٢ من الآية ٢٧٨
(٢) مفاتيح الغيب ٥٢١/٢١
(٣) روح المعاني ٣٩٦،٣٩٥/٨
(٤) التحرير والتنوير ٧٩،٧٩/١٦ ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن ١٤٨/٨
(٥) التحرير والتنوير ٧٩،٧٩/١٦

قوله تعالى:[قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾] (١)

فصلت جملة {قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ } عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً (٢) ، وقعت جواباً لسؤال أثارته الجملة السابقة، وكأن سائلاً سأل وقال: فبماذا أجاب أو ردَّ عليها جبريل عليه السلام فكان الجواب: {قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ} فبينهما شبه كمال اتصال .

وقوله تعالى {إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ} أسلوب قصر قلب إضافي، وهو قصر موصوف على صفة، أداته (إِنَّمَا) المفيدة الحصر، أي لست إلا رسول ربك، لأنها كانت تعتقد أنه بشر، فقلب عليها معتقدها .

يقول الشيخ ابن عاشور: والقصر في قوله: {إنما أنا رسول ربك} قصر إضافي، أي لست بشراً، رداً على قولها: إن كنت تقياً المقتضي اعتقادها أنه بشر. (٣)

وأتى بلفظ الرب مضافاً إلى ضميرها : تشريفاً وتسلية لها ، وبياناً لسبب الهبة .

يقول أبو السعود: والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها والإشعار بعلة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها . (٤)

---

(١) سورة مريم ١٩ الآية ١٩

(٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢٨٣/١٦

(٣) التحرير والتنوير ٨١/١٦ ، زهرة التفاسير ٤٦٢٣/٩

(٤) إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥ ، نظم الدرر ١٨٥/١٢ ، البحر المديد ٣٢٦/٣

وقوله تعالى [غُلَٰمًا زَكِيًّا] ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في معناه:

فقيل طاهراً من الذنوب، وقيل: نبياً، وقيل: نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح فالزكا [١] شامل للزيادة المعنوية والحسية . [٢]

والفصل بالجار والجرور (لكِ) بين الفعل والمفعول: للتشويق إلى المفعول، ليكون أوقع في النفس .[٣]

وفي إسناد الهبة في قوله تعالى{ لِأَهَبَ لَكِ} إلى جبريل عليه السلام مجاز عقلي علاقته السببية، لأنَّ الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في قميصها بأمر الله ﷻ جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها.

قال الزمخشري: {لِأَهَبَ لَكِ} لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع [٤] ، وقرئ: إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك. [٥] . [٦]

---

(١) زكا الشَّيْء زكوا وزكاء وَزَكَاة نما وَزَاد . لسان العرب ٣٥٨/١٤ مادة (ز ك ا) ،المعجم الوسيط ٣٩٦/١

(٢) أنوار التنزيل ٨/٤ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥ روح المعاني ٣٩٦/٨ ، زهرة التفاسير ٤٦٢٣/٩ ، البحر المديد ٣٢٦/٣

(٣) نظم الدرر ١٨٥/١٢

(٤) قال ابن منظور: دِرْعُ المرأَةِ: قميصُها، وَهُوَ أَيضاً الثَّوْبُ الصَّغِيرُ تَلْبَسُهُ الْجَارِيَةُ الصَّغِيرَةُ فِي بَيْتِهَا، وَكِلَاهُمَا مُذَكَّرٌ، وَقَدْ يُؤَنَّثَانِ. لسان العرب ٨٢/٨ مادة (د ر ع)

(٥) القراءة شاذة ذكرها ابن خالويه في مختصره ولم ينسبها لأحد . مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه ، مكتبة المتنبي – القاهرة

(٦) الكشاف ١٠/٣ ، أنوار التنزيل ٨/٤، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥، مفاتيح الغيب ٥٢٢/٢١، روح المعاني ٣٩٦/٨

وقيل إنَّ قوله {لِأَهَبَ لَكِ} جاء حكاية لقوله ﷻ بتقدير القول : أي ربك الذي قال أرسلت هذا الملك لأهب لك ، ويؤيده قراءة من قرأ (لِيَهِب) بياء مفتوحة بعد اللام [(١)]. [(٢)]

قوله تعالى: [قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾] [(٣)]

فصلت جملة { قالَتْ ...} عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً [(٤)] **تضمنت جواباً لسؤال أثارته الجملة السابقة وهو: فماذا فعلت مريم أو بماذا أجابت؟ فكان الجواب:{قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ} .**

والاستفهام في قوله تعالى: [أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ] خرج من معناه الحقيقي إلى التعجب أي: قالت تعجباً مما سمعته : كيف يكون لي غلام، والحال أنى لم يمسني بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله ﷻ ولم

---

(١) القراءة متواترة وهي لأبي عمرو ويعقوب وورش وقالون بخلف عنه ، والباقون بهمزة مفتوحة في مكان الياء (لِأَهَبَ) وهو الوجه الثاني لقالون ، ولحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة . المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوريّ، ٢٨٨/١ تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق عام: ١٩٨١م ، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة المؤلف: عبد الفتاح القاضي ١٩٨/١ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان

(٢) معاني القرآن للفراء١٦٣/٢الكشاف ١٠/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٥ ، روح المعاني ٣٩٦/٨

(٣) سورة مريم ١٩ الآية ٢٠

(٤) الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢٨٤/١٦

أك في يوم من الأيام فاجرة تبغي الرجال بل كنت عفيفة نزيهة طاهرة . (١)

يقول الرازي : وإنما تعجبت بما بشَّرها جبريل عليه السلام لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور، وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة .

فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء، وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد، ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك . (٢)

وقوله تعالى: [وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ] إما أن يكون كناية عن الزواج الشرعي ، وعليه يكون

المراد من قوله تعالى {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } نفي الزنا والفجور ، ولم يدخل في الكناية لأنه ليس حريٌّ بأن يراعى فيه ذلك .

يقول الزمخشري: جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال، لأنه كناية عنه، كقوله تعالى [مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ] (٣) وقوله [أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ] (٤) ،

(١) زهرة التفاسير ٢٤/٤٦/٩ ، التفسير الوسيط ٢٦،٢٥/٩

(٢) مفاتيح الغيب ٥٢٣/٢١ ، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين (حاشية الجمل) لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ٥٦/٣ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٣) سورة البقرة ٢ من الآية ٢٣٧

(٤) سورة النساء ٤ من الآية ٤٣

والزنا ليس كذلك، إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، وليس بقمن [١] ، أن تراعى فيه الكنايات والآداب . [٢]

<u>وإما أن يكون المقصود بالمسّ ما يشمل الحلال والحرام</u> ، أي: ولم يمسسني بشر كائناً من كان لا بنكاح ولا بزنى ، ويكون قوله: {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} من <u>باب ذكر الخاص بعد العام</u> . [٣]

وذلك لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، حيث إن من لم تعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه . [٤]

يقول أبوحيان: وفي قولها {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} تخصيص بعد تعميم لأن مسيس البشر يكون بنكاح وبسفاح . [٥]

---

(١) يُقَالُ: أَنْتَ (قَمَنٌ) أَنْ تَفْعَلَ كَذَا بِفَتْحِ الْمِيمِ أَيْ خَلِيقٌ وَجَدِيرٌ وحَرِيّ . مختار الصحاح١/٢٦٠ مادة (ق م ن)

(٢) الكشاف ١٠/٣ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٨/٤ ، مفاتيح الغيب ٥٢٣/٢١

(٣) ذكر الخاص بعد العام نوع من الإطناب وفائدتة التنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من جنس العام أو نوعه، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات نحو{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى }سورة البقرة ٢ من الآية ٢٣٨ فالصلاة الوسطى وهي في أظهر الأقوال صلاة العصر داخلة في عموم لفظ "الصلوات" لكن خصت بالذكر وعطفت على عموم الصلوات اهتماما بشأنها، وتوجيها لتخصيصها بعناية فائقة خاصة. الإيضاح ٢٠٠/٣ ، البلاغة العربية ٦٩/٢

(٤) مفاتيح الغيب ٥٢٣/٢١

(٥) البحر المحيط ٢٤٩/٧ ، تفسير القرطبي ٩١/١١ ، غرائب القرآن ٤٧٧/٤ ، روح المعاني ٣٩٦/٨،٣٩٧

ومجيء لفظ {بَشَرٌ} نكرة في سياق النفي يؤيد هذا الرأي ، حيث إنه يعم كل بشر سواء أكان زوجاً أم غير زوج . (١)

قال أبو السعود: وإنما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادئ الولادة . (٢)

وعطف جملة {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} على جملة { وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} لاتحاد الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى .

قال أبو السعود: {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرة تبغي الرجال . (٣)

والمرأة البغي (٤)**: الفاجرة التي تبغي الرجال، المجاهرة المشتهرة في الزنا .** (٥)

---

(١) التفسير الوسيط ٢٥/٩، ٢٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٦٠/٥ ، روح المعاني ٣٩٦/٨، ٣٩٧

(٣)إرشاد العقل السليم ٢٦٠/٥ ، روح المعاني ٣٩٦/٨، ٣٩٧

(٤) قال أبو حيان: (بغياً) وزنه فعول عند المبرد اجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها لأجل الياء كما كسرت في عصي ودلي ، قيل: ولو كان فعيلا لحقتها هاء التأنيث فيقال بغية .

وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل، ولو كانت فعولاً لقيل بغو كما قيل فلان نهو عن المنكر انتهى ، قيل: ولما كان هذا اللفظ خاصاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة التأنيث فصار كحائض وطالق، وإنما يقال للرجل باغ ، وقيل: بغي فعيل بمعنى مفعول كعين كحيل أي مبغية بطلبها أمثالها. البحر المحيط ٢٤٩/٧ ، الدر المصون ٥٧٨/٧

(٥) الكشاف ١٠/٣ ، البحر المحيط ٢٤٩/٧ ، محاسن التأويل ٩٠/٧

والنفي في قوله تعالى {وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} نفي لأن تكون بغياً من قبل تلك الساعة، فلا ترضى بأن ترمى بالبغاء بعد ذلك ، فالكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب [١]، والمعنى: ما كنت بغياً فيما مضى أفأعود بغياً فيما يستقبل. [٢]

يقول البقاعي: لما هالها هذا الأمر، أداها الحال إلى غاية الإسراع في إلقاء ما تريد من المعاني لها لعلها تستريح مما تصورته، فضاق عليها المقام، فأوجزت حتى بحذف النون من «كان» ولتفهم أن هذا المعنى منفي كونه على أبلغ وجوهه فقالت {ولم أك} . [٣]

قوله تعالى: [قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾] [٤]

جملة [قَالَ كَذَٰلِكِ] من كلام الملك تقرير لمقالته وتحقيق لها ، وقد فصلت عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً، وقعت جواباً عن

---

(١) الاستصحاب: جعلُ الحُكمِ الَّذي كان ثابتًا في الماضِي باقيًا على حالِه حتَّى يقومَ دليلٌ على انتقالِهِ عن تلكَ الحالِ، وبعبارةٍ أُخرى: بقاءُ ما كانَ على ما كانَ عليهِ حتَّى يثبتَ ما يُغيّرُه. تيسيرُ علم أصول الفقه المؤلف: عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي١/٢٢٠ الناشر: مؤسسة الريان للطباعة بيروت لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، علم أصول الفقه المؤلف : عبد الوهاب خلاف ١/٩١الناشر : مكتبة الدعوة - شباب الأزهر (عن الطبعة الثامنة لدار القلم)

(٢) التحرير والتنوير ١٦/٨٢

(٣) نظم الدرر ١٢/١٨٥

(٤) سورة مريم ١٩ الآية ٢١

تعجبها السابق ، أي إذا كنت بهذا الحال فكيف يكون لي غلام ؟ فكان الجواب { قَالَ كَذَٰلِكِ} . (١)

والكاف في قوله [كَذَٰلِكِ] محلها الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: الأمر كذلكِ أي: كما ذكرتِ من أَنَّ بشراً لم يمسسكِ، ومن أنكِ لم تكوني في يوم من الأيام بغياً، أو الأمر كذلكِ من أني أرسلني ربك لأهب لك غلاماً زكياً من غير أن يكون له أب. (٢)

وفصلت جملة [قَالَ رَبُّكِ] عن الجملة السابقة لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً، وكأن لسان الحال يقول: كيف يكون بغير سبب ؟ فأجاب بقوله: {قال رَبُّكِ }. (٣)

وعبَّر باسم الرب ﷻ للدلالة على الرحمة واللطف والإحسان بعباد الرحمن ، وهو الاسم الذي صُدِّرت به السورة وبنيت عليه . (٤)

وقدِّم المعمول (عليَّ) على عامله (هَيِّنٌ) لإفادة الاختصاص ، أي هو في غاية السهولة عليّ وحدي لا يقدر عليه أحد غيري ، ولا مانع منه أصلاً. (٥)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، الجدول في إعراب القرآن الكريم ٢٨٥/١٦

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، إعراب القرآن وبيانه ٧٨/٦ ، التفسير الوسيط ٢٦/٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، نظم الدرر ١٨٦/١٢

(٤) نظم الدرر ١٨٦/١٢

(٥) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

وفي قوله تعالى [وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ] إيجاز بالحذف ، حيث إنه إمَّا تعليل معلله محذوف أي: ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو معطوف على تعليل محذوف، أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية . (١)

قال ابن الأثير : وأما حذف الجملة فنحو قوله تعالى {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} ، فقوله: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} ، تعليل معلله محذوف: أي وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله، وهو جعله آية للناس، ودل به على المسبب الذي هو الفعل . (٢)

وأتى بنون العظمة في قوله: [وَلِنَجْعَلَهُۥ] لأنه لما كان خلقه عليه السلام من أعظم الخوارق، فنبه عليه بالنون أي بما لنا من العظمة . (٣)

وقوله تعالى: [ءَايَةً لِّلنَّاسِ] أي علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى عليه السلام ، وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم عليه السلام لا من ذكر ولا أنثى، وبقية أولاده من ذكر وأنثى معاً . (٤)

والالتفات من الغيبة في قوله تعالى: [قَالَ رَبُّكِ] إلى التكلم في قوله تعالى [وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ] لإظهار كمال الجلالة . (٥)

---

(١) الكشاف ١٠/٣ ، البحر المحيط ٢٤٩/٧ ، الدر المصون ٥٧٩/٧

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢٢٤/٢

(٣) نظم الدرر ١٨٦/١٢

(٤) المرجع السابق

(٥) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، البحر المديد ٣٢٦/٣

وقوله: [وَرَحْمَةً مِّنَّآ] معطوف على { آية }، أي: وَلنجعله رَحْمَةً عظيمة كائنة مِنَّا عليهم، ليهتدوا بهدايته، ويرشدوا بإرشاده . (١)

وقوله تعالى: [وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا] أي محكماً قد تعلق به قضاؤنا الأزلي أو قُدِّر وسُطِرْ في اللوح لا بد من جريانه عليكِ البتة، أو كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويفعل لتضمنه حِكَماً بالغة. (٢)

وهو كناية عن النفخ فيها من روحه ﷻ .

يقول القاسمي : وقوله {وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا} من تتمة كلام جبريل عليه السلام لمريم ، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته، أو من خبره تعالى لنبيه ﷺ ، وأنه كنى به عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: [وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا] . (٣). (٤)

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، البحر المديد ٣٢٦/٣

(٢) الكشاف ١٠/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٦١/٥ ، روح المعاني ٣٩٨،٣٩٧/٨

(٣) سورة الأنبياء ٢١ من الآية ٩١

(٤) محاسن التأويل ٩٠/٧

خاتمة

الحمد لله رب العالمين ، إليه يرجع الفضل كله ، والحمد كله ، والأمر كله ، سبحانك ربى " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " (١) **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم.**

وبعد:

فالفضل كله في إعداد هذا البحث يرجع إلى الله ﷻ حيث أنعم علي بالبحث في هذا الموضوع – وقد كان اختياره أمراً مقضياً – والذي تعلمت منه الكثير ، ثم أجدد الحمد لله أن وفقني للكتابة فيه حتى خرج في هذه الصورة ، والتي أسأل الله ﷻ أن تنال رضاه أولاً، ثم رضا من طالعها، وألا يحرمني ووالديَّ الثواب من ورائها إنه ولى ذلك والقادر عليه .

والدارس لكتاب الله تعالى بفهم ونية صادقة يجد العديد من معجزاته ، يجدها في بلاغته المعجزة ، ولغته الراقية ، وأسلوبه الموجز البليغ ، وطريقة جمعه وترتيبه المنسق البديع ، كما يجدها في علومه الفياضة ، ومعارفه الكثيرة ، وهذا يدل على بلاغة القرآن الكريم العظيمة ، وسمو بيانه الموجز المعجز .

وبعد هذه الرحلة المباركة في رحاب هذه الآيات الكريمات من سورتي الكهف ومريم ، واستخراج ما فيها من أسرار بلاغية رائعة التركيب

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود٢/٤٤٠ حديث رقم ٤٨٦ طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

، جميلة السبك متآخية الألفاظ ، سلسة الأسلوب ، كما هو الحال والشأن في جميع سور القرآن الكريم على السواء .

ومن خلال عملي في هذا البحث توصلت إلى أهم النتائج الآتية:

١) امتازت الآيات الكريمة في السورتين بالأسلوب البلاغي المعجز الرصين ، فكان لكل مقام مقال، واشتملت الآيات الكريمة على نوعي الأسلوب البلاغي: كالخبر والإنشاء، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وغيرها من فنون علم المعاني.

٢) بلغ الإعجاز البلاغي في الآيات الكريمة أشده ، وذلك في الصور البيانية الرائعة ، من تشبيه ، واستعارة ، ومجاز عقلي ومرسل ، وكناية ، والتي كانت تظهر المعنى المجرد في سورة حسية ملموسة، وقد ظهر ذلك جلياً في الآيات الكريمة، وفي قوله ﷻ : [وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا] وقوله ﷻ [قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾] خير شاهد عليه .

٣) كما كان لعلم البديع ، ومحسناته اللفظية والمعنوية دور بارز في إظهار البلاغة القرآنية ، فهو لم يأت لمجرد الحلية اللفظية فقط ، وإنما جاء لمقتضيات معنوية ، وأسرار بلاغية لا يكمل المعنى ولا يتم إلا بها .

وقد كان لكل أسلوب من الأساليب البلاغية المتقدمة جماله ووقعه على النفس ، وبلاغته في الأسلوب ، وأية بلاغة تصل إلى بلاغة هذا الأسلوب القرآني المعجز؟!!!

٤) أخذت بلاغة القرآن حصتها من كل نوع من الأنواع الثلاثة، فكان من امتزاج تلك الأنماط نمط جديد بين صفتي الفخامة والعذوبة – الفخامة تنتج عن الجزالة والعذوبة تنتج عن السهولة – وهما صفتان كالمتضادتين، فالتوفيق بينهما على نحو لا يحدث نبوة لا يتيسر إلا في القرآن .

لذا يقول الخطابي: "إن الكلام يقوم بثلاثة أشياء: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وقد حاز القرآن في هذه الثلاثة معاً غاية الشرف والفضيلة: ففيه أفصح الألفاظ وأعذبها وأجزلها، وأحسن التأليف وخير المعاني.... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير؟ "[١]

وهذا ما مَنَّ الله ﷻ به عليَّ ، وما سنحت به الفرصة في عمل هذا البحث، وما هو إلا جهد المقل، ولا أدعي فيه الكمال ولكن عذري أني بذلت فيه قصارى جهدي، فإن أكن قد وفقت فذلك من فضل الله ﷻ وكرمه عليَّ ، فمنه وحده الهداية والتوفيق ، وبه الحول والقوة [وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ] [٢] .

---

(١) البيان في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٧ طبعة دار المعارف ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب المؤلف: دكتور إحسان عباس /٣٤٣، ٣٤٤ ط: الرابعة، ١٩٨٣ الناشر: دار الثقافة، بيروت ط الأولى: ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

(٢) سورة هود ١١ من الآية ٨٨

وإن كانت الأخرى فمرجع ذلك أنني بشر أخطئ وأصيب، ولا ألومن إلا نفسي وتقصيري ، وحسبي أنني اجتهدت قدر طاقتي ، ويكفيني شرف المحاولة والتعلم .

ولا أزيد على ما قاله العماد الأصفهاني:

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.[1]

(١) مقدمة معجم الأدباء لياقوت الحموي ١/ ١١ طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: التفسير وعلوم القرآن

١ **الإتقان في علوم القرآن المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م**

٢ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت**

٣ **أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م**

٤ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ**

٥ **البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ**

٦ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ.

٧ البرهان فى تناسب سور القرآن المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر تحقيق: محمد شعباني دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب عام النشر: ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م

٨ البرهان في علوم القرآن للزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

٩ بيان المعاني المؤلف: عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني الناشر: مطبعة الترقي – دمشق الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥ م

١٠ التحرير والتنوير المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١١ التسهيل لعلوم التنزيل المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

١٢ التفسير البسيط المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي الناشر: عمادة البحث العلمي

– جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ

١٣ تفسير الشعراوي المؤلف: محمد متولي الشعراوي الناشر: مطابع أخبار اليوم

١٤ تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

١٥ التفسير القرآني للقرآن المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة

١٦ تفسير المراغي المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

١٧ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج المؤلف : د / وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ

١٨ التفسير الواضح المؤلف: محمد محمود حجازي، نشر: دار الجيل الجديد بيروت ط : العاشرة – ١٤١٣ هـ

١٩ التفسير الوسيط للقرآن الكريم المؤلف: محمد سيد طنطاوي الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الطبعة: الأولى

٢٠ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

٢١ جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٢٢ جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ نشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

٢٣ الجامع لأحكام القرآن المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة

٢٤ الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

٢٥ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي) المؤلف: أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري دار النشر: دار صادر ـ بيروت

٢٦ الدر المنثور المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي الناشر: دار الفكر - بيروت

٢٧ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

٢٨ زاد المسير في علم التفسير المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

٢٩ زهرة التفاسير المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة دار النشر: دار الفكر العربي

٣٠ صفوة التفاسير المؤلف: محمد علي الصابوني الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

٣١ غرائب التفسير وعجائب التأويل المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت

٣٢ غرائب القرآن ورغائب الفرقان المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري المحقق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

٣٣ غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري المحقق: سعيد اللحام

٣٤ فتحُ البيان في مقاصد القرآن المؤلف : محمد صديق خان قدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري الناشر: المَكتبة

العصريَّة للطبَاعة والنَّشْر، صَيدَا – بَيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

٣٥ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين (حاشية الجمل) لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٣٦ في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ

٣٧ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

٣٨ لباب النقول في أسباب النزول المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان

٣٩ مجاز القرآن المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري المحقق: محمد فواد سزگين الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة

٤٠ محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

٤١ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ

٤٢ معاني القرآن المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل شلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة: الأولى

٤٣ معاني القرآن وإعرابه المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج المحقق: عبد الجليل عبده شلبي الناشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٤٤ مفاتيح الغيب المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٤٥ المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ

٤٦ مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الثالثة

٤٧ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

٤٨ النكت والعيون المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

ثانياً: القراءات والتوجيه

٤٩ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة المؤلف: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، الشهير بالبناء المحقق: أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية لبنان الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ

٥٠ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة المؤلف: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان

٥١ البيان في عدّ آي القرآن المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني المحقق: غانم قدوري الحمد الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م

٥٢ الحجة في القراءات السبع المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب جامعة الكويت الناشر: دار الشروق – بيروت ط : الرابعة، ١٤٠١ هـ

٥٣ الحجة للقراء السبعة المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي المحقق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي الناشر: دار المأمون للتراث دمشق / بيروت ط: الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م

٥٤ الفرائد الحسان في عد آي القرآن المؤلف: عبد الفتاح ابن عبد الغني بن محمد القاضي الناشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ

٥٥ المبسوط في القراءات العشر المؤلف: أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبو بكر تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق عام النشر: ١٩٨١ م

٥٦ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي الناشر: وزارة الأوقاف–المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الطبعة: ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م

٥٧ النشر في القراءات العشر المؤلف : شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف المحقق : علي محمد الضباع الناشر : المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية]

ثالثاً : الحديث الشريف

٥٨ شعب الإيمان للبيهقي حققه: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي نشر: مكتبة الرشد للنشر بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م

٥٩ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان المحقق: شعيب الأرنؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣

٦٠ صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٦١ صحيح مسلم المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

٦٢ فوائد تمام المؤلف: أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي ثم الدمشقي المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي الناشر: مكتبة الرشد – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٢

٦٣ المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠

٦٤ مسند الإمام أحمد بن حنبل المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

٦٥ المعجم الكبير المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة: الثانية

رابعاً: البلاغة وإعجاز القرآن

٦٦ أسرار البلاغة المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة

٦٧ الإعجاز في نظم القرآن أ.د/ محمود السيد شيخون طبعة دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

٦٨ أمالي ابن الشجري المؤلف: ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري المحقق: الدكتور محمود محمد الطناحي الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ط: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١ م

٦٩ الإيضاح في علوم البلاغة المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت ط: الثالثة

٧٠ البديع في البديع المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي الناشر: دار الجيل الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

٧١ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف : عبد المتعال الصعيدي الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٧٢ البلاغة العربية المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

٧٣ البلاغة (المعاني) المؤلف : مناهج جامعة المدينة العالمية المرحلة: البكالوريوس الناشر: جامعة المدينة العالمية .

٧٤ البيان في إعجاز القرآن للخطَّابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطّابي والجرجاني، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام طبعة دار المعارف عام ١٩٧٦

٧٥ تاريخ النقد الأدبي عند العرب المؤلف: دكتور إحسان عباس الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان الطبعة الأولى: ١٣٩١هـ – ١٩٧١م

٧٦ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٧٧ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب المحقق: مصطفى جواد الناشر: مطبعة المجمع العلمي عام النشر: ١٣٧٥هـ

٧٨ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت

٧٩ خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني المؤلف: محمد محمد أبو موسى ، الناشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة

٨٠ دلائل الإعجاز في علم المعاني المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني المحقق: د. عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م

٨١ سر الفصاحة المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م

٨٢ الصناعتين المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ هـ

٨٣ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

٨٤ علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)

٨٥ الفاخر المؤلف: المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب تحقيق: عبد العليم الطحاوي مراجعة: محمد علي النجار الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي الطبعة: الأولى، ١٣٨٠ هـ

٨٦ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة

٨٧ معترك الأقران في إعجاز القرآن المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

٨٨ مفتاح العلوم المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط : الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

٨٩ من أسرار البلاغة في القرآن تأليف د/ محمود السيد شيخون الناشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م

٩٠ من بلاغة القرآن المؤلف: أحمد عبد الله البيلي البدوي الناشر : نهضه مصر – القاهرة عام النشر: ٢٠٠٥

٩١ من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل المؤلف: محّمد سَعيد رَمضان البوطي الناشر: موسسة الرسالة – بيروت عام النشر: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

٩٢ المنهاج الواضح للبلاغة المؤلف: حامد عوني الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث

٩٣ النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخطّابي والجرجاني، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام طبعة دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦م

خامساً: المعاجم واللغة والإعراب

٩٤ الأصول في النحو المؤلف: أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج المحقق: عبد الحسين الفتلي الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت

٩٥ إعراب القرآن الكريم المؤلف: أحمد عبيد الدعاس– أحمد محمد حميدان – إسماعيل محمود القاسم الناشر: دار المنير ودار الفارابي – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

٩٦ إعراب القرآن المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ

٩٧ إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ط : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

٩٨ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

٩٩ التبيان في إعراب القرآن المؤلف : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري المحقق : علي محمد البجاوي الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٠٠ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي المصري تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، نشر : دار الفكر العربي الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م

١٠١ الجدول في إعراب القرآن الكريم المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي الناشر: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ

١٠٢ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

١٠٣ شرح شافية ابن الحاجب المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، نجم الدين حققهما، وضبط غريبهما، مجموعة من الأساتذة ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان عام: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

١٠٤ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار نشر: دار العلم للملايين بيروت ط: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

١٠٥ ضياء السالك إلى أوضح المسالك المؤلف: محمد عبد العزيز النجار الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

١٠٦ القاموس المحيط المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

١٠٧ لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

١٠٨ مختار الصحاح المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية بيروت - صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

١٠٩ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس الناشر: المكتبة العلمية - بيروت

١١٠ المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة

١١١ الموجز في قواعد اللغة العربية المؤلف : سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني الناشر : دار الفكر – بيروت – لبنان الطبعة : ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م

سادساً : أصول الفقه

١١٢ تيسيرُ علم أصول الفقه المؤلف: عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

١١٣ علم أصول الفقه المؤلف : عبد الوهاب خلاف الناشر : مكتبة الدعوة عن الطبعة الثامنة لدار القلم

فهرس الصور البلاغية

الواردة في البحث عند أول ورودها

التوسط بين الكمالين مع عدم المانع
الفصل والوصل
التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي
الإيجاز بالحذف
الاستعارة
الاستعارة التبعية
التعبير بالفعل المضارع
الاستعارة المكنية
الاستعارة التمثيلية
التخلص
التعبير بصيغة الماضي
التوكيد
التنكير
الاستعارة العنادية التهكمية
الاستعارة التصريحية
الاختصاص
كمال الاتصال
التعريف بالموصولية
التعبير بـ في
الاستعارة الأصلية
المجاز المرسل

المبالغة

حذف المفعول

الإنشاء الطلبي

الاستفهام الإنكاري

الإيجاز بحذف الجملة

وضع الظاهر موضع المضمر

حذف أكثر من جملة

كمال الانقطاع

تعريف المسند إليه بالضمير

رد العجز على الصدر

صيغة الأمر

شبه كمال الاتصال

المجاز العقلي

الجناس

جناس التصحيف

تعريف المسند إليه باسم الإشارة

التفريع

تعريف المسند إليه بالموصولية للإشارة إلى نوع بناء الخبر

لام الاستحقاق

إيجاز بحذف المضاف

التكميل

تعريف المسند إليه بأل لإفادة الاستغراق

المجاز مرسل وعلاقته اعتبار ما سيكون

تعريف المسند إليه بالإضافة

استعارة مكنية تخييلية

الطباق

طباق السلب

الكناية

الجناس الناقص المكتنف

مراعاة فواصل الآيات

أسلوب القصر

القصر الإضافي

قصر قلب

الإدماج

التقديم والتأخير

جناس الاشتقاق

الاحتراس

أغراض الخبر

المجاز المركب المرسل

الإطناب

الاكتفاء

توسط الجار بين الفعل ومفعوله

التجريد

خروج الاستفهام إلى التعجب

تقديم المعمول لإفادة الاختصاص

الالتفات

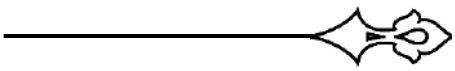

التضمين

التعبير بالجملة الاسمية

ذكر الخاص بعد العام

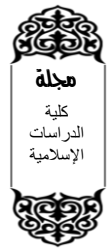

فهرس الموضوعات

تقديم
تمهيد
الفصل الأول : الصور البلاغية في سورة الكهف من قوله تعالى { وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ } إلى آخر السورة الكريمة
تمهيد : بين يدي السورة الكريمة
المبحث الأول: الصور البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :
الكافرين وعاقبتهم يوم القيامة
المبحث الثاني: الصور البلاغية في الآيات التي تتحدث عن :
جزاء المؤمنين وسعة علم الله ﷻ ووحدانيته .
الفصل الثاني : الصور البلاغية في سورة مريم من أول السورة إلى قوله تعالى { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}
تمهيد : بين يدي السورة الكريمة
المبحث الأول: الصورالبلاغية في الآيات التي تتحدث عن:
قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
المبحث الثاني: الصور البلاغية في الآيات التي تتحدث عن:
قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام
خاتمة
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الصور البلاغية الواردة في البحث عند أول ووردها
فهرس الموضوعات